الفصل الرابع
الإســـلام والعقـل

إن البشرية تدين للمفكرين المبدعين بالفضل في تقدمها وتحضرها وحلِّ مشاكلها ، فالمفكرون المبدعون هم أُسُّ أي حضارة وعمـــاد أي تقـــدم ورقـــى ، والأغبيـــاء والجاهلون والمنحرفون هم أُسُّ كل تخلف وسبب كل رجعية ، فالعقل والـــذكاء مـــا دخل في شيء إلا زانه وطوره ، والجهل والغباء ما دخل في شيء إلا شانه وأفسده حتى وإن كان ديناً سماويّاً .

والأمم المتقدمة هي التي تعلى من شأن العقل وتـــشجع المبـــدعين والمبتكـــرين ، والأمم المتخلفة هي التي تغض من شأن العقل وتحارب المبدعين والمفكرين .

التفكير الإبداعي

التفكير الإبداعي له تعريفات كثيرة منها :

- أن تأتي بفكرة جديدة بالنسبة لك وللآخرين .
- القدرة على توليد أفكار جديدة ومفيدة .
- الإتيان إلى حيز الوجود بشيء لم يكن موجوداً من قبل .
- القدرة على عمل ترابط ورؤية علاقات وروابط جديدة .
- القدرة على أن ينهل الإنسان من موارد متنوعة ويوحد بينها بـــشكل متكامـــل وجديد .
- تمكن العقل من إدراك العلاقة بين شيئين بطريقة يتولد عنها ظهور شيء ثالث.

مفهوم البدعة في الإسلام

إن من دعاة الإسلام من يعدُّ كل إبداع بدعة وكل مستحدث ضلالة ، وكل مجتهد مُبْتَدِع خارج من الملَّة !

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (البقرة : ١١٧) كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يجوز أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وخص رسول عليه، فهي في حيز المدح. وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الأفعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه. ويعضد هذا قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه، لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح، وهي وإن كان النبي ﷺ قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس، عليها، فمحافظة عمر رضي الله عنه عليها، وجمع الناس لها، وندبهم إليها، بدعة لكنها بدعة محمودة ممدوحة. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسول فهي في حيز الذم والإنكار" (١)

إن من أكبر ما ابتليت به الأمة فهمها الخاطئ للبدعة فليس كل بدعة ضلالة وليس كل جديد مستنكر بل المُبْدِع رجل مجتهد مفكر متدبر أعمل عقله وسخر علمه في إنشاء ما لم يسبق إليه بشرط أن يكون هذا الإبداع لا يخالف القرآن الكريم ولا صحيح السنة وعلى هذا يكون الخلفاء الراشدون مبدعين ، وابن عباس مبدع ، وأبو حنيفة مبدع، والقرطبي مبدع ، وابن حزم مبدع ، والنووي مبدع ، والغزالي مبدع، وابن حجر مبدع، وغيرهم من كبار العلماء المجتهدين وكل علماء الطبيعة والفلك والرياضيات مبدعون وإن أخطأ أحدهم ، وكل ابن آدم خطاء ، فله أجر كما بين ذلك الرسول ." إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد . " (متفق عليه)

وينطبق هذا القول على من له أهلية الاجتهاد من العلماء .

وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضي الله عنهم: إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ٨٧

الأفضل في ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة ومن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه .[1]

قال ابن عبد السلام: في أواخر " القواعد " البدعة خمسة أقسام :

" فالواجبة " كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم .

" والمحرمة " ما خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة .

" والمندوبة " كل إحسان لم يعهد عينه في العهد النبوي كالاجتماع عن التراويح وبناء المدارس والربط والكلام في التصوف المحمود وعقد مجالس المناظرة إن أريد بذلك وجه الله .

" والمباحة " كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر، والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن .

وقد يكون بعض ذلك مكروهاً أو خلاف الأولى والله أعلم ."[2]

إن حجة النصيين الحرفيين ومن سار على نهجهم من المسلمين أن كل ما لم يفعله السلف الصالح يعد بدعة ضالة ، ولعمري إن هذا الفهم السقيم لهو البدعة الضالة .

وقد نبَّه الشاطبى إلى هذه الحقيقة بوضوح ؛ فقد جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدى إلى تفرق الأمم شيعاً وجعل بأسها بينها شديد : " أن يعتقد الإنسان في نفسه ، أو يُعْتَقد فيه ، أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين وهو لم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيا ، وخلافه خلافاً ، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع ، يعنى فروع الدين ، وتارة في كلى وأصل من أصول ، من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية ، فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها ، حتى يصير منها ما ظهر له بادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا رسوخ في فهم مقاصدها ، وهذا هو المبتدع وعليه نبَّه الحديث

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٣ ص ٢٥٤ .

الصحيح أنه قال : لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " [1] ونحن نقول ما ابتدع عالم قط ولكنه استفتى من ليس بعالم .

قال مالك بن أنس بكى ربيعة بكاءً شديداً فقيل له : مصيبة نزلت بك ؟ فقال : لا... ولكن استفتى من لا علم عنده) .

والحق أن نصف العلم ، مع العجب والغرور ، يضر أكثر من الجهل الكلى مع الاعتراف ؛ لأن الجهل بسيط ، وذلك جهل مركب وهو جهل من لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى . [2]

والتاريخ الإنساني العام خير شاهد على ذلك فما تقدمت أمة إلا وكان المفكرون المبدعون هم طليعتها ، وما تخلفت أمة إلا وكان المقلدون الجامدون قادتها .

ولن نذهب بعيداً فالحضارة الإسلامية على يد من قامت ؟ وعلى يد من انهارت ؟

لقد قامت الحضارة الإسلامية على يد رجال أعملوا عقولهم فأحسنوا فهم دينهم ودنياهم فآمنوا وعملوا الصالحات وكان معظمهم ينتمون لحضارات قديمة ذات صبغة علمية عقلية – كالحضارة المصرية القديمة والبابلية والفارسية – ووجدوا في الدين الجديد ما كان ينقصهم من الهدى والرشاد ، وإذكاء لما عندهم من عقل وذكاء فصنعوا حضارة عظيمة لا يفتأ غير المسلمين يعترفون بها حتى الآن .

فلما غَلَبتْ روح التقليد والتكرار وأغلق باب الاجتهاد غربت شمس الحضارة الإسلامية لتشرق على أوروبا في بداية القرن السادس عشر ، وما تقدمت أوروبا إلا بعد أن كفرت بعبادتها للقدماء كأرسطو وبدأ علماؤها ومفكروها ينظرون للأمام ويعملون عقولهم ويدرسون الحضارة الإسلامية ويطورونها فتقدموا وتخلفنا ، نظروا للأمام ونظرنا للخلف ، فاخروا بأنهم يصنعون حضارة حديثة وافتخرنا بأننا كنا أصحاب حضارة قديمة ، ويوم أدركنا أننا تخلفا قلنا نقلد أجدادنا علَّنا نتقدم مثلهم ونسينا أن سر تقدم أجدادنا أنهم لم يقلدوا آباءهم بل أعملوا عقولهم واهتدوا بقرآنهم وسنة نبيهم .

---

(١) أبو اسحاق الشاطبى " الاعتصام " ج ٢ص ١٧٣ .

(٢) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٦٣

فزاد تخلفنا لأننا اتخذنا مقلدينا أئمة وحاربنا مفكرينا ومبدعينا مع أن الحضارة الإسلامية ما قامت إلا على أكتاف هؤلاء المفكرين المبدعين .

مكانة العقل في الإسلام

إن للعقل مكانةً سامية في الإسلام فقد ذكر القرآن العقل ومشتقاته نحو تسع وأربعين مرة ، أما كلمة العلم ومشتقاتها فقد ذكرت أكثر من سبعمائة مرة في القرآن الكريم .

وقد وصف الله تعالى من أوتى الحكمة ، وهي إحدى ثمار العقل ، بأنه أوتي خيراً كثيراً { يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (البقرة : ٢٦٩)

وجعل الإسلام العقل مناط التكليف فلا إيمان لمن لا عقل وكان النبي ﷺ إذا ذُكر له عبادة رجل سأل عن عقله وهو القائل " إن لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعت قول الفجار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }.(الملك : ١٠) (أخرجه ابن المجبر)

قال الإمام النسفي في تفسير الآية الكريمة : " وقالوا لو كنا نسمع الإنذار سماع طالب الحق أو نعقل أي نعقله عقل متأمل ما كنا في أصحاب السعير في جملة أهل النار وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملزمتان . [١]

ولقد حرم الله تعالى كل ما يفسد العقل مثل : الخمر والمخدرات والمسكرات ..

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (المائدة : ٩٠)

وعن ابن عمر عن النبيﷺ قال " كل مسكر خمر، وكل خمر حرام "

(رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن)

سُمِّيَتْ الخمر خَمْراً لأنَّها تَخْمُرُ العَقْلَ وتَسْتُرُهُ . [٢]

وبالعقل عُرف الله تعالى. وبالعقل قام الدليل على النبوة . والعقل هو المخاطب في آي القرآن والمطالب بالاهتداء إلى الخالق جل وعلا .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ أُوْلِى الأَلْبَابِ }

(آل عمران : ٩٠)

---

(١) تفسير النسفي ج٤ ص ٢٦٤

(٢) انظر القاموس المحيط مادة " خمر " .

والعقل هو المكلَّف بتدبر الكون والاهتداء إلى سنن الله في خلقه وهو بحكم طبيعته يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ..

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ} (الزمر : ٢١)

والعقل إن لم يؤمن بدين الله الحق تخبط في مذاهب وفلسفات شتى يقنع بإحداها اليوم ثم ما لبث أن يتركها لمذهب آخر عندما تظهر له مفاسده ، ويظل ينتقل من مذهب إلى مذهب هكذا دواليك كريشة في مهب الريح أو كزورق تتقاذفه الأمواج العاتية ولا يصل إلى الإيمان واليقين الذي لا يزعزعه شك ولا تخالطه ريبة إلا مع دين الله الصحيح " الإسلام " ، وبدون هذا الدين القويم لا يستقر العقل على مذهب فكلها لها عيوبها ومسالبها التي ذكرها أعداء هذا المذهب أو أثبتته الأيام وكشفها الواقع والأمثلة على ذلك كثيرة ، فكثير من الناس في الشرق والغرب آمنوا بالماركسية وبماركس نبيها ثم ما لبثوا أن تبدت لهم عيوبها : كفقدان الدافع للعمل ، والقضاء على الطموح والرغبة في الترقي ، وافتقار الروح للإيمان بخالقها الكامل الخالد القادر ، وإفقار الأغنياء وعدم إغناء الفقراء ، وديكتاتورية الحزب الشيوعي وتسلطه وقهره للشعوب واغتناه على حساب إفقار جميع الطبقات .

فكفر بعضهم بالماركسية ولجئوا إلى الوجودية ولاذوا بنبيها سارتر الذي هو على النقيض من ماركس ، لكن سرعان ما ظهرت عيوب الوجودية : كالحيرة والقلق الذي أصاب نفوس الوجوديين بالدمار وقد ترك هذا القلق المرضى رواسبه حالياً في المجتمعات الغربية وصاحبه تفكك كثير من جوانب هذه المجتمعات .[١] مما جعل هؤلاء الوجوديين وغيرهم من أصحاب الأفكار الفلسفية المعاصرة يلجئون إلى حركات اللا معقول واللا مبالاة وغيرها من حركات أخرى غريبة وشاذة .[٢] وهكذا يظل العقل البعيد عن دين الله القويم يتخبط في ظلمات الجهل والشك ولن يصل إلى الإيمان واليقين مما يجعل صاحبه ينغمس في الشهوات الحسية والملذات

(١) سماح رافع محمد ، ومحمد مصطفي البسيونى " الفلسفة ومشكلات الإنسان " ص ٧٨
(٢) نفسه ص ٨٧

الحيوانية والشذوذ ، ثم يدمن المخدرات والمسكرات ليطمس بها على عقله الذي لم يوصله لشيء وأخيراً يلجأ إلى الانتحار ليتخلص من هذه الحياة البائسة الخالية من السعادة إذ لا سعادة إلا في ظل إيمان حقيقي بدين الله تعالى" الإسلام " .

والعجيب أن الإسلام أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الله تعالى : المقروء (القرآن الكريم) ، والمشهود (الكون) كما أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الإنسانية : المقروء (التاريخ) ، والمشاهد (الواقع) .

وسوف نوضح هذا بشيء من التفصيل حتى نبين دور العقل في فهم الدين ، وفهم الكون ، والتاريخ ، والواقع .. كما أكدت ذلك نصوص الدين : القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

أولا : دور العقل في فهم كتاب الله المقروء (القرآن الكريم)

يقول الله تعالى في واجب الإنسان نحو القرآن المبارك .

{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } (ص : ٢٩)

إذن واجب الإنسان نحو القرآن الكريم كما اخبر الله تعالى هو التدبر والفهم .

وأمر الله تعالى بالبحث الدقيق في القرآن الكريم ، ومعرفة توازنه العجيب ، وآياته التي تسير في خط مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف . وأحكامه المتوازنة في ذاتها ، والمتوازنة مع كيان الإنسان المخاطب بها فلا تناقض فيها ولا تعارض .

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا } (النساء : ٨٢)

وقد نعى الله تعالى على أولئك الذين ختم الجهل والهوى على قلوبهم وصرفهم عن تدبر القرآن جهلهم وغباءهم .

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد : ٢٤)

وأخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين يرتلون القرآن ويتدبرون معانيه هم الفائزون أما الذين كفروا بالقرآن فأولئك هم الخاسرون .

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (البقرة : ١٢١)

إذن الواجب نحو القرآن الكريم ، كما بينت الآيات ، هو التدبر .

معنى التدبر والفرق بينه وبين الحفظ

تدبر الأمر أي فهمه وفكر فيه وعرف ما تؤول إليه عاقبته ،وتدبر القرآن أي تفكر فيه ليعرف معناه فكان في هذا رد على فساد قول من قال : لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس. (١)

أما كلمة الحفظ فلها معنيان هما : الاستظهار ، والصيانة والحراسة .

أما عن حفْظ القرآن لاستظهاره فقط دون فهم وتدبر ، ودون أن يمس القلبَ نورُه فليس هو المقصود فقد جاء في تفسير قوله تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } (فاطر : ٣٢) .

الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . (٢)

ولقد وضح لنا النبي كريم الفرق بين الحافظ والفاهم حيال ما جاء من الهدى والعلم فقال ﷺ : "إِنّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِى اللّهُ بِه عَزّ وَجَلّ مِنَ الْهُدَىَ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً. فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيّبَةٌ. قَبِلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَت الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ. فَنَفَعَ اللّهُ بِهَا النّاسَ. فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا. وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىَ. إِنّمَا هِي قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللّهُ بِه ، فَعَلِمَ وَعَلّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً. وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىَ اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ " (متفق عليه).

يبين النبي ﷺ أن الذي انتفع بالهدى هو النوع الأول من الناس الذين لهم أفهام ثاقبة ولهم رسوخ في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وعندهم اجتهاد ، أما النصيون الحرفيون فهم الحافظون لأسانيد الأحاديث ومتونها الجاهلون بعللها وفقهها فهم ، النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة

---

(١) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠

(٢) تفسير القرطبي ج١٤ ص ٣٤٨

والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .[1]

ولقد شبَّه الله تعالى اليهود ومن على شاكلتهم ممن آثروا حفظ نصوص الدين على فهمها بالحمار الذي يحمل أسفاراً لا يفقه فيها شيئًا .

{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (الجمعة : ٥)

أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيّاً ولا يدرى ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى: { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف : ١٧٩)[2]

إن الفقه هو المصحح لجميع العبادات وهي بدونه فاسدة ، فالمتعبد على جهل يتعب نفسه دائماً كالحمار وهو يحسب أنه يحسن صنعاً وفي تشبيهه بالحمار مذمة ظاهرة وتهجين لحاله كما في قوله تعالى : { كمثل الحمار يحمل أسفاراً} وشهادة عليه بالبله وقلة العقل .[3]

أما حفظ القرآن بمعنى الصيانة والوقاية والحراسة فقد تكفَّل الله تعالى به .

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (الحجر : ٩)

{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } (القيامة : ١٧)

وما طالبنا الله بحفظ القرآن الكريم – بمعنى استظهاره فقط دون الوقوف على معانيه – يقول على رضي الله عنه : " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها "[4]

إنما طالبنا الله تعالى بحفظ الفرج عن الزنا ، وحفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وكذب ... ، وحفظ البطن عن أكل الحرام ، وحفظ العين عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، طالبنا بعامة حفظ الجوارح والقلوب عن معصية الله ...

---

(١) الإمام النووي" صحيح مسلم بشرح النووي " ج ١٥ ص ٤٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١٧ .
(٣) الإمام المناوي " فيض القدير " ج٦ ص ٣٣٩ .
(٤) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٤٤

حتى أن الصحابي الجيل الذي اختاره أبو بكر لجمع القرآن كان أهم مؤهلاته العقل إلى جانب الأمانة قال زيد بن ثابت قال أبو بكر: " إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه "
(رواه البخاري)

المتدبرون والمقلدون

لقد أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم وإعمال العقل في استخراج كنوزه واستكشاف أسراره في آيات كثيرة منها قوله تعالى :
{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا }
(النساء: ٨٢)
{ كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ } (ص: ٢٩) .
{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد: ٢٤) .

فالواجب على العلماء والدعاة إلى الله تعالى إعمال عقولهم في الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك في ضوء العلوم الحديثة والواقع المتغير والتطور المستدام وعدم الاكتفاء بترديد ما تركه لهم السابقون .

إن الحق تعالى يريد أن يعطي الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسألة برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبال واع وبفكر وتدبر . { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } (محمد : ٢٤)

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافي من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك في العقائد أن تؤمن ، وفي الأحكام أن تفعل .[١]

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار والزجر ، أي : أيعرضون عن كتاب الله تعالى فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهي .

{ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } أي : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التي حالت بينهم وبين التدبر والتفكر .[٢]

---

(١) تفسير الشعراوي ج ١ص ٨٢٣
(٢) محمد سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج ١ ص ٣٨٩٥

لقد نعى الله على أولئك المتخلفين الذين يرفضون الفهم الجديد ويقدسون مواريث القديم البائدة تقليدهم ، أولئك الجهال المقلدون لغيرهم تقليداً أعمى دون بصيرة ، ودون فقه لدين أو لواقع فقال تعالى :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُون } (البقرة : ١٧٠)

ويشدد القرآن في الدعوة إلى تدبر كتاب الله وسنة رسوله ويقيم الحجة على أولئك العاكفين على تلاوة ما خلفه القدماء من معارف ذاهلين عن تدبر القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُون } (المائدة : ١٠٤)

والآية وإن كانت قد نزلت في عرب الجاهلية الذين تحكمت فيهم آراؤهم السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلة فهي عامة في كل من قلد غيره دون فهم واتبع أقوال السالفين دون مراعاة للواقع المتغير ولا للعلم المتجدد وأحوال الناس المختلفة .

يقول القرطبي : " قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطى إبطال التقليد . " (١)

فلا غرو أن يصف الله تعالى المقلدين تقليداً أعمى بالعمى في الدنيا ، وتوعدهم بالعمى في الآخرة { وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } (الإسراء : ٧٢)

ولا يظن ظان أننا ننهي عن حفظ القرآن الكريم وتلاوته فهذا من العبادات المقررة .

فالنبيِّ ﷺ قَالَ : " يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " (رواه أَبُو داود والترمذي)

والمقصود بقارئ القرآن في الحديث: هو الذي كان يتلوه في الدنيا حق تلاوته، ويعمل بأحكامه فيأتمر بأوامره ويزدجر عن نواهيه، فهذا قارئ القرآن الذي يقرؤه رغبة فيه . (١)

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١١ .

إنما ننهي عن الاستماع إلى أولئك الذين عطَّلوا عقولهم فلم يتدبروا القرآن الكريم، ولم يديموا النظر فيه إنما اكتفوا بالتمسك بظاهر الآيات وحفظ بعض الآثار ويريدون أن يحملوا الناس قهراً على فهمهم السقيم .

يقول تعالى : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } (الحجر: ١٢، ١٣)

يقول الفخر الرازي : " نقول التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وقال بعده كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عناداً وجهلاً فكان هذا موجباً للحوق الذم الشديد بهم . (٢)

أولو الألباب

ما خاطب الله تعالى أولى الحفظ مرة إنما خاطب أولى الألباب في ست عشرة مرة في كتابه العظيم .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ أُوْلِي الأَلْبَابِ }

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب بدراسة سير الأنبياء والصالحين واستخلاص العبرة والموعظة من حياتهم ، والإقتداء بهم في حياتهم الزاخرة بالإيمان والعمل الصالح .

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب تدبر دورة المياه في الحياة فكيف يصعد البخار العذب من أسطح المحيطات والبحار المالحة عندما تسقط أشعة الشمس عليها ، ثم يتكاثف في طبقات الجو ، وتحركه الرياح ليسقط على منابع الأنهار ويجرى بالخير والنماء فيشرب والناس والحيوان و وينبت الزرع مختلفا أوانه وطعومه

---

(١) مركز الفتوى بإشراف د.عبد الله الفقيه

(٢) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٩ ص ١٢٩

وتنشأ{جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(الرعد:٤)

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ } (الحديد : ٢١)

كما يقرر القرآن أن الراسخين في العلم هم الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله .

{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (آل عمران : ٧)

كما أن الله تعالى وصف أولى الألباب بأنهم هم أصحاب البصيرة الذين يدركون أن ما جاء به الأنبياء هو الحق بعكس الأغبياء الجهال الذي يصفهم الله تعالى بعمى القلب { أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (الرعد : ١٩)

كما يعلمنا الله تعالى أن أولى الألباب هم الذين يعملون بأحسن ما عرفوا من علوم الأقدمين وإبداعات المحدثين فهم غير مقلدين إنما يدرسون ويتعلمون ويعملون بأحسن ما عرفوا ودرسوا .

{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (الزمر : ١٨)

واللب أخص من العقل وهو الخالص من الشوائب ، وقيل هو ما زكى من العقل وكل لب عقل ولا عكس . (١)

والعقل إن سيطر عليه الهوى فسد ، وإن بعد عن هدى الدين ضل ، وإن دخل فيما لا مجال له فيه شطَّ .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

---

(١) الإمام المناوى" فيض القدير" ج٢ ص ٧٠

ومما سبق يتبن لنا مدى تقدير الله تعالى للعقل حيث ترك له في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

يلفت الله تعالى الإنسان إلى إدراك وجوده ، سبحانه ، بتدبر بديع خلقه والبحث عن خالق هذا الوجود .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ثم يطلب الله تعالى من الإنسان أن يسأل نفسه بعد تفكره في خلق السموات والأرض وما بينهما .

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ } (الطور: ٣٥، ٣٦)

فأتى الله تعالى لمنكري وجود الله تعالى بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن؟

إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق ، سبحانه وتعالى ، قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو { شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ } (آل عمران : ١٨) ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم، فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين؟

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : ٤٢] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصَفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } (المؤمنون : ٩١) [1]

انظر كيف ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقة في هذا الوجود وهي: حقيقة وجود الله ووحدانيته .

كما ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى حقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

{ قُلْ إِنَّمَا أَعظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للَّه مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ } (سبأ : ٤٦)

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ص ٧٠٢٣ ، ٧٠٢٤

الله تعالى يدعو الناس إلى التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

{ أن تقوموا لله . مثنى وفرادى } . . مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء . . وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

{ ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة } . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوي المبين . (١)

وهكذا عهد الله تعالى إلى العقل البشري أن يهتدي إلى أعظم حقيقيتين في مجال العقيدة : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة.

أما في مجال التشريع فقد ترك الحق تبارك وتعالى للعقل أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع منها على الأصول وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويراعى القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان . ولا عجب بعد ذلك أن تعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي . (٢)

إن العقل الكامل لازم للمجتهد بلا جدال يتدبر به معاني الأحكام : يرجع بالفروع إلى أصولها المقررة ، وبالجزئيات إلى كلياتها الثابتة ، ويفصل المجمل في الكتاب بالمفصل من السُّنة ، ويستظهر الخفي منه بالجلي منها ، والبحث عن علل الأحكام الظاهرة ليقيس غير المقرر على المقرر منها ، وغير ذلك من عمل المجتهد في استنباطه من الكتاب والسنة وأخذه بالقياس وانتظامه في سلك الإجماع التي هي أصول الدين على أنه شرع الله الذي بسطه فيها وحصره في دائرتها . أستغفر الله أن يكون في ديننا ما لا يحتمله العقل ولا يسعه تصوره ، بل نحن قررنا أن العقل

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٦ ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٢) د. يوسف القرضاوى "الخصائص العامة في الإسلام " مكتبة وهبة ص ٥٨

السليم مستحسن لكل ما جاء به الدين الحكيم مستهجن لكل ما نهى عنه الشرع القويم" [1]

العقل والغيب

لقد فتح الله تعالى الباب واسعاً أمام العقل ليكتشف سنن الله تعالى في خلقه ، ويسخر القوانين التي تسير الكون في نفعه ، وأراحه من عناء البحث فيما لا مجال للعقل فيه من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله وحده :

{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (الأنعام : ٥٩)

وسد الله تعالى على المؤمن باباً من أبواب الضلال الذي أفنى خلق كثير من الفلاسفة أعمارهم في الوصول إلى حقيقة من حقائقه بعيداً عن دين الله فما زادت عقولهم إلا جهلاً وما زادت قلوبهم إلا ضلالاً إنه باب علم الغيب .

{ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } (الجن : ٢٦- ٢٧)

حتى الأنبياء والمرسلون ، فما بالك بمن دونهم ، لا يعلمون من الغيب شيئاً إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه وهذا هو أعظم البشر أجمعين يقول :
{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
(الأعراف : ١٨٨)
والغيب ما لا يدرك بالحواس ، والحواس هي منافذ العقل ولقد ضلَّ كل من بحث في الغيب بعقله من فلاسفة اليونان ومن نهج نهجهم لذا وجه القرآن الكريم المسلم إلى ما تدركه حواسه في الكون ليبحث فيه فهو مجال علمه ، وأن يؤمن بما أخبره الله تعالى به من الغيب .

ثانياً : دور العقل في فهم كتاب الله المشهود (الكون)

القرآن حافل بالآيات الداعية للبحث في الكون اللافتة إلى بديع صنع الله .

---

(١) طه البشري " مجلة المنار " ج ٩ ص ٧٧١ .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ التِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (البقرة : ١٦٤)

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} (نوح : ١٦ – ٢٠)

فالله تعالى يأمرنا بدراسة القمر ، وهناك سورة باسمه ، فهل صعدنا للقمر ودرسناه ؟!

ويأمرنا أن ندرس الشمس ونستفيد من نورها وحرارتها فهل استفدنا من أشعتها وطاقتها ؟!

ويلفتنا إلى أنه سبحانه خلق الإنسان من طين الأرض ، فهل حللنا عناصر التربة وعناصر الإنسان وقارنا بين هذه العناصر وتلك ليزداد يقيننا بالله تعالى ؟!

هل درسنا الأرض وكيف { قدر فيها أقواتها } وما فوقها من أحياء { وما تحت الثرى } من كنوز .

من المؤسف أن كثيراً من المسلمين تركوا كل هذا لأعدائنا لكي يستطيلوا به علينا، وشغلوا أنفسهم بأمور غيبية نهانا رسول الله عن بالبحث فيها ، لقد اشتغل كثير من المسلمين قديماً وحديثا بقضية ذات الله تعالى وصفاته وأقحموها على أصول الدين وشغلوا الناس بها عن البحث في الكون وتدبر آيات الله فيه ، وأصبحت هذه القضية المنهي عن البحث فيها من أهم مباحث العقيدة ، ومن أهم أسباب تمزيق المسلمين شيعاً وأحزاباً وكان الأولى السكوت عنها فلقد نهانا النبي عن التكلم فيها بل عن نهانا عن مجرد التفكير فيها ، وسكت الصحابة عنها فلم يؤثر عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان فيها شيء .

وكثيرة هي الآيات التي يأمرنا جلَّ وعلا فيها بالبحث في الكون وكشف سننه ومن المؤسف أننا تركنا البحث في الكون وسننه لأعدائنا ؛ فتقدموا وتخلفنا ، واحتلوا أرضنا واكتفينا نحن بالدعاء عليهم !!

إن آيات الله في الكون لا يدركها كليل البصر ، ولا يتدبرها ضعيف العقل ، ولا يؤمن بها أعمى القلب وهم للأسف كثيرون في قومنا !!

{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الجاثية : ٣-٥)

والمحجوبون عن رؤية آيات الله في الأنفس وفي الآفاق نماذج رديئة للإسلام وفتنة عنه ولو أطالوا القراءة وتحريك الشفاه .

ولو درسنا آيات الله في الآفاق لزاد إيماننا به تعالى ولا نصلح حالنا في الدنيا .

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } (فصلت : ٥٣)

ويلفتنا الله تعالى إلى ما في الأرض من كنوز ، وما في أنفسنا من إعجاز ، لكننا أهملنا علوم الزراعة والري ، والهندسة ، والجيولوجيا ، والبترول والتعدين ،... كما أهملنا علوم الطب والطبيعة ، وعلوم الإنسان حتى جاء علماء الغرب فاستولوا على خيرات أرضنا ،وأجهزوا على ثرواتها ، وعشنا نحن عالة على علومهم الغث منها والسمين .

{ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } (الزاريات: ٢٠ – ٢١)

إن الذاكرين لله حقاً ليس أولئك الذين يرددون أوراداً لا تتجاوز حناجرهم إنما أولئك الذين يتدبرون هذا الكون العظيم ويستنبطون أسراره التي أودعها الله تعالى فيه ويسخرونها لنفع الناس وتردد ألسنتهم أمام إبداع الخالق جل وعلا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ومن هدى الآيات يتضح لنا أن الكون هو ميدان الإبداع والاكتشاف ، والاختراع، وأن بحث المؤمن في الكون عبادة ، وتدبره فيه خشية .

تأمل هذه الآية العجيبة التي تجعل خشية الله تعالى محصورة في العلماء وفي مقدمتهم علماء الكون من المؤمنين بالطبع .

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }
(فاطر: ٢٧ – ٢٨)

إذا كان ذلك كذلك فأين علماء المسلمين في علوم الكون المختلفة ؟!

ماذا بعد هذه الآيات من دعوة لكي يغزو المسلم الفضاء ويكشف أسرار السماء ؟!

ماذا بعد هذه الدعوة لكي يركب المسلم الماء ، ويدرس ما فيه من أحياء ؟!
ماذا بعد هذه الدعوة لكي يضرب في الأرض و يدرس الحيوان والتربة والنبات ، ويخترق الأرض و يخرج ما فيها من معادن وثروات ؟!
إنه إن عمّرَ الكونَ وعَبَدَ الله ، فاز بنعيم الدنيا وأرضى مولاه ، أي فاز بحسنتي الدنيا والآخرة .
{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }
(البقرة : ٢٠١)
فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرَفت كلّ شر فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام [1] .
وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين.
عن أَنس، قَالَ: " كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَبِيِّ ﷺ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (متفق عليه)
فبالإيمان الصادق والعلم النافع والعمل الصالح يجمع الإنسان بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة كما فعل سلفنا الصالح الذين آمنوا وعملوا الصالحات فدانت لهم الدنيا : شرقاً وغرباً ، وانتشر دين الله في سائر البقاع ، وانتفع بعلمهم سائر الأصقاع .
{ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }
(آل عمران : ١٤٨)
كما يرفع الله تعالى درجات العلماء في الدنيا والآخرة .
{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }
(المجادلة : ١١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٥٨

وجاء " في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } (النصر: ١) فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجَلُ رسول ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم " [١]

إن دراسة الكون نهج قرآني واضح ، لبناء الإيمان : أولاً : ولدعمه وحراسته . ثانياً: ولمنافع البشر ومتاعهم . ثالثاً : ومع ذلك فإن أجيالاً كثيفة أغلقت مشاعرها دون هذه الدارسة . [٢]

ثالثا : دور العقل في دراسة ، واستخلاص العبرة من التاريخ .

أمرنا الله تعالى بأن ندرس تاريخ من سبقونا لنأخذ منه العبرة ونستفيد من إصلاحهم ولا نكرر أخطاءهم ، ولعمري إن في دراسة التاريخ لفوائد جمة وعبرة لمن يعتبر .

يقول تعالى { قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } (العنكبوت:٢٠)

ولم يكتف الله الرحمن الرحيم بأمرنا بالبحث في تاريخ من سبقونا بل أمرنا أيضاً بدراسة آثارهم الباقية .

{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } (الصافات : ١٣٧– ١٣٨)

كانت قريش تمر وهي في طريقها إلى الشام بمدائن قوم لوط لذا أمرهم الله تعالى بدراسة هذه الآثار وتاريخ هذه القرية ليستخلصوا منها العبرة ولا يكونوا أمثالهم فالعاقل من اتعظ بغيره .

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} (الفرقان:٤٠)

فلم يَكُونُوا يَرَوْنَهَا : أي في أسفارهم ليعتبروا .

{وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ } (الفجر : ١٠)

والأوتاد : الآثار ذات الدعائم المشدودة إلى الأرض بقوة مثل المسلات وغيرها.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٣٠٠ .

(٢) محمد الغزالي " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " دار الصحوة للنشر والتوزيع ص ٧٠

أ ليس عاراً على المصريين أن تظل آثارهم خرساء حتى يأتي الأجنبي – شامبليون – فيستنطقها ؟!

أما كان أولى بنا أن نتعلم لغة أجدادنا ونفهم ما تركوه لنا من حضارة شهد لها التاريخ بالخلود ، والعالم بالعبقرية ؟!

ويحدثنا القرآن الكريم عن ثمود (قوم نبي الله صالح) وعن آثارهم .

{ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ } (الحجر : ٨٢)

{ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ } (الفجر : ٩) .

وبعد أن كذبت ثمود نبي الله صالح وعقروا الناقة أهلكهم الله تعالى .

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا }
(الشمس : ١١– ١٥)

وظلت بيوتهم شاهدة عليهم وعبرة للعقلاء من بعدهم .

{ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (النمل : ٥٢)

ولم يكتف الله عز وجل بأن أمرنا بدراسة تاريخ الإنسانية وآثار القدماء بل قص علينا قصصا كثيرة من حياة الأمم .

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } (يوسف : ٣)

ومعنى القص ليس مجرد الحكاية تروى للتفكه أو لشغل الفراغ ، إنما القصص يرويها القرآن لنتتبع أثرها بما توفر لدينا من علوم ومعارف ، ونستخلص منها الحكمة و المعرفة.

فكم من العلوم والمعارف سوف نجنيها إذا بحثنا بحثا علميا دقيقا للآثار الفرعونية مثلا .

وهذا هو معنى القصص كما جاء في القرآن الكريم ومعاجم اللغة " قَصَصْتُ الشيء إذا تتبّعْت أثره شيئاً بعد شيء؛ ومنه قوله تعالى: وقالت لأُخْته قُصّيه؛ أَى اتّبِعى أَثَرَه " (١)

(١) مادة قصص في معجم لسان العرب .

ويوضح الله تعالى الهدف من القصص فيقول :

{ لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ } (يوسف : ١١١)

تأمل معي هذه الآية العجيبة التي توضح لنا الهدف من دراسة تاريخ الإنسانية، وهو العِبْرة أتدرى ما معنى العبرة ؟

العبرة هي : " العَجَب. واعْتَبَر منه: تعجّب. وفي التنزيل: فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبصار؛ أي تدبّروا وانظُروا ، والعبرة : كالمَوْعظة مما يَتّعظُ به الإنسان ويَعمَلُ به ويَعتبِر ليستدل به على غيره. والعِبْرة: الاعتبارُ بما مضى " [١]

ومَن هؤلاء الذين يتدبرون التاريخ ويستدلون به على غيره ؟

يجيبك القرآن الكريم : { عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ }

وأولو الألباب الذين يعرفون أن طبيعة الإنسان واحدة منذ خلقه الله تعالى – وإن كانت معارفه متنامية – وأن على العاقل أن يتعظ بغيره حتى يدرك ما أدرك من نجاح ويتجنب ما أصابه من فشل ، والاتعاظ غير التقليد.

فإذا كان الاتعاظ يدفع للأمام فإن التقليد يشد للخلف .

والقرآن الكريم يجعل السبب الرئيسي في هلاك الأمم والشعوب السالفة هو الظلم، والظلم أنواع كثيرة كما بينا ذلك في موضع سابق .

{ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهي ظَالِمَةٌ فَهي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } (الحج : ٤٥)

والناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أنه ما عزت أمة إلا بسلطان وما ذلت إلا بظلم ، وما تكامل بناؤها إلا بدين .

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ } (الرحمن : ٣٣) .

السلطان : هو الحجة والبينة كما يعنى القوة ،و القهر[٢] أي لن تستطيع أمة من الأمم أن تبسط سلطانها إلا بحجة علمية ، أو قوة عسكرية ، أو كلاهما معاً .

---

(١) مادة عبر في معجم لسان العرب .

(٢) انظر مادة سلط في لسان العرب ، والقاموس المحيط .

فإذا كان الهكسوس والتتار والرومان مثلاً [1] ، قد بسطوا سلطانهم بالقوة وحدها فإن اليونان ، والبلاد الأوربية الحديثة ، وأمريكا المعاصرة قد بسطت سلطانها بالعلم والقوة جميعاً .

لكن الحضارة الفرعونية ، والحضارة الإسلامية [2] إنما كان سبب تحضرها وقوتها هو الدين الذي يشمل فيما يشمل على قوة العقيدة وقوة الأخلاق وقوة العلم إلى جانب القوة العسكرية .

ما الحضارة ؟

الحضارة لابد أن يتوفر فيها جانبان : ديني سماوي (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) ، وإبداع إنساني : علمي (علوم طبيعية ، ورياضية ، وفلكية ...) وتقني (اختراعات متطورة) ومادي (تشيد وبناء ...) وفني (أدب ، ورسم ، ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة : فروسية ، رمي ، سباحة ، عدو ، مصارعة ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحياً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) ونفسيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابد أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة ، فيما نعلم ، إلا في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة .

وليست هذه دعوى مزعومة ، أو مفخرة مكذوبة ، إنما هي الحق الأبلج .

رابعاً : دور العقل في فهم الواقع

أما عن دور العقل في فهم الواقع فقد أعطى الإسلام العقل مجالاً واسعاً في فهم الدين في ضوء الواقع مما جعل الدين الإسلامي يمتاز عن غيره من الأديان أنه يجمع بين الاستفادة من خلاصة ما أبدعه البشر من علوم نافعة في فهم كتاب الله وسنة نبيه فأن هذا الدين العظيم غير مبتوت الصلة بأحوال الناس ومصالحهم في

---

(١) في بداية دولتهم وقبل تأثرهم باليونان علميّاً وثقافيّاً .

(٢) ربما تكون هناك حضارات أخرى تشترك معهما لكن لا تتوفر لدى معلومات كافية للحديث عنها مثل حضارة ما بين النهرين .

كل زمان ومكان ولِمَ لا .. وهو الرسالة الخاتمة وآخر بيان من الله تعالى لخلقه جميعا { هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } (آل عمران : ١٣٨)

ولِمَ لا.. ورسول الله مبعوث رحمة للعالمين { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء : ١٠٧) ومبعوث لكافة البشر من عرب وعجم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا }(سبأ : ٢٨)

لذا فإن هذا الدين العظيم يراعى أحوال الناس في كل زمان ومكان بفضل العلماء الذين يجددون للإسلام شبابه { إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها }(أبو داود والحاكم و البيهقي) هؤلاء العلماء الذين قال الرسول فيهم (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) (رواه مسلم) هؤلاء العلماء أمناء الله على خلقه لأن الله تعالى فقههم في الدين وبصرهم بأحوال الناس (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة) (رواه مسلم وأحمد)

هؤلاء العلماء الذين ورثوا الفهم الصحيح للدين عن النبي ﷺ في فهمه الدين والدنيا فقد كان النبي عالماً بأحوال بالناس ليس المسلمين فحسب بل عالماً بأحوال الأمم المختلفة والملوك وإلا فكيف عرف أن في الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد لذا وجه الهجرة الأولى إليه ولم يوجهها لقيصر الروم أو كسرى الفرس .

ونجده ﷺ يختار المدينة مكاناً لهجرته، ويتعامل مع جميع الأطراف الموجودة فيها وحولها بأسلوب يناسب أحوالها . وعندما أرسل ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : " إنك تأتى قوماً أهل كتاب " (متفق عليه) وهذا من إدراكه ﷺ واقع كل بلد وما يحتاج إليه؛ ولذلك قال له:" فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله "(متفق عليه)

وكذلك نلمس عمق هذا العلم في غزواته ، ورسائله إلى الأمم والملوك والقبائل. وكذلك يبرز هذا الجانب في استقباله للوفود، وتعامله معهم، وإنزاله للناس منازلهم .

إن لم يكن هذا هو الذروة في فقه الواقع فأين يكون ؟

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب :٢١)

ومن أقوى الأدلة على عناية الكتاب والسنة بفقه الواقع قصة الفرس والروم ، وفيها يبرز اهتمام الصحابة أيضا بهذا العلم ، وإدراكهم لأهميته، والقصة كما وردت في سورة الروم، أنه قامت حرب بين فارس والروم، فانتصر الفرس على الروم، وهنا حزن المسلمون لهذا الأمر، فقام أبو بكر رضي الله عنه وراهن أحد المشركين على انتصار الروم على الفرس، وحدد لذلك أجلا قصيرا.

فأخبر أبو بكر رضي الله عنه الرسول ﷺ بذلك فأقره، وأمره بزيادة مدة الأجل إلى عشر سنين، ففعل أبو بكر، وجاءت الآيات في سورة الروم (الم غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الروم : ١- ٥)

ويبرز فقه الواقع في هذه القصة فيما يلي :

١- أن القصة بين فريقين ليسا مسلمين ومع ذلك خلدها القرآن الكريم ؛ لأثرها المباشر على حياة المسلمين .

٢- اهتمام المسلمين بهذه القضية، وحزنهم عندما انتصرت فارس، وفرحهم عندما انتصر الروم.

٣- معايشة أبى بكر لهذه الأحداث، والمراهنة على انتصار الروم.

٤- إقرار الرسول ﷺ لأبى بكر بل طلبه أن يمد في الأجل لأن (البضع) إلى عشر سنوات . والقضية ليست قضية سياسية بحتة كما يتصور كثير من الناس ، بل هي قضية مبدأ ، فانتصار الملحدين على أهل الكتاب يؤثر على المسلمين ، وانتصار أهل الكتاب دليل على انتصار الحق على الباطل ، وهو مؤذن بانتصار المسلمين على أهل الكتاب بعد ذلك ؛ لأنهم هم الذين على الحق .

ونحن نعيش في واقع سريع التغير كثير التقلب فعلى مستوى العلمي لا يكاد يوم يمر إلا وأتى باكتشاف جديد أو بعلم فريد . وعلى المستوى الاقتصادي فإن التغير فيه أسرع ، والصراع فيه أشد ، أما على المستوى السياسي والعسكر فالأمر أخطر والخطب أفدح .

إن الجهل بالواقع وعدم إعمال العقل واستخدام أحدث الوسائل التكنولوجية قد جعلنا غنيمة لأعدائنا ومجالاً لاستثمارهم على جميع المستويات ، فقد أصبحنا البقرة الحلوب التي يتصارعون عليها .

فعلى المستوى الاقتصادي سيطر الغرب الصليبي على جميع مواردنا وباعونا جميع منتجاتهم ، فاغتنوا وافتقرنا ، وتقدموا وتخلفنا ، وأصبحنا عالة على جميع ما ينتجون من الإبرة إلى الصاروخ ولو تلفت أحدنا حوله ليجد معظم ما حوله – إن لم يكن كل – من إنتاج الغرب فالثياب التي نلبسها ، والأجهزة التي نستخدمها ، ووسائل المواصلات التي نركبها ، والأسلحة التي نتسلح بها ، وكثير من المطعومات والمشروبات التي نأكلها من الغرب ...

والحقيقة أن الفقيه لا بد له من أن يعيش واقعه ويطالع الجديد في العلوم الطبيعية والحكمية فمجموعة العلوم إنسانية والاجتماعية والتاريخية، التي لا يرى النصيون الحرفيون فائدة منها ، لم تعد تنفع معها النظرة العابرة، أو الملاحظة الآنية، أو الأُمنية المخلصة. حتى أنه يمكن القول: بأن وسائل وأدوات سبر حقيقة المجتمع، وكشف خفاياه، ومعرفة واقعه، وتحديد وجهاته، أصبحت علوماً. فعلم الإحصاء وحصر الإمكانات والاستطلاعات والمسح والبحث الاجتماعي بوسائل منهجية للتقويم والقياس لم يعد أرقاماً جامدة، وإنما يعبر عن مؤشرات ويحمل دلالات لا يمكن تجاهلها عند أي دراسة أو تخطيط أو تجديد أو تنمية للموارد البشرية والمادية.. فلم يعد علم الإحصاء أداة ووسيلة، وإنما أصبح مقوماً لا يمكن تجاوزه.

حتى أن استطلاع الرأي والتعرف على التحولات الاجتماعية وأسبابها، أصبح علماً وفناً، لا يقتصر على قراءة الحاضر وإنما يتجاوز إلى التأثير فيه والتوجيه له. وليست الاستبيانات وفنية وضعها وما يطرح فيها من أسئلة، وما يتوصل إليه من نتائج، بأقل شأنًا في فقه الواقع وامتلاك مفاتحه، والدخول إليه من أبوابه، بعيداً عن المجازفات والخبط الأعشى. إن علوم فقه الواقع اليوم أشبه بالحواس والنوافذ العقلية للحركة الإنسانية، والأمة التي تفتقدها في عالم اليوم أمة تعيش فيما يشبه مدارس الصم والبكم. (١)

وكان من شروط المفتي أن يكون عارفًا بأعراف بلده وزمانه وعادات أهله، حتى إن ابن عابدين قال: " من لم يكن عالمًا بعادات أهل زمانه فهو جاهل " .

إن تغير الزمان والمكان أو أحدهما يعني تغير الواقع.

---

(١) أحمد بوعود " فقه الواقع (أصول وضوابط) مكتبة مشكاة الإسلامية ص ١٥ ، ١٦

وما يكون محققًا لمصلحة في زمن ما قد لا يحققها في آخر، وما يحقق مفسدة في زمن ما قد لا يحققها في زمن آخر.. وقد رأينا من ذلك إسقاط عمر رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم، عندما رأى أنه وبتغير الزمان، لم يعد يحقق تلك المصلحة، ولم تعد هناك حاجة إلى ذلك.

وإن النظر في الواقع والعلم بمكوناته، في الزمان والمكان، إليه يرجع في تقدير المصلحة وإنشاء الفتوى وتغير المواقف. وقد عقد لهذا ابن القيم فصلاً عنونه: تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والعوائد والنيات)، يقرر فيه أن الفتوى، بما بنيت عليه من مصلحة، تتغير بتغير العناصر المذكورة . (١)

والعجيب أن أكثر البلاد تمسكاً – في الظاهر – بالدين هي أكثر البلاد اعتماداً على الغرب في كل حياتها فلا تكاد تنتج شيئاً تستخدمه أو تزرع شيئاً تأكله ، والأعجب أن علماءها لا يكفون عن اتهام حكامنا بأنهم عملاء للأمريكان واتهام علمائنا بالنفاق لأننا عملنا معاهدة مع إسرائيل استرددنا بها أرضنا المحتلة ويشاء الله أن يبتليهم بالأمريكان فلا يكاد صدام حسين يغزو الكويت حتى هرول حكامهم للأمريكان يطلبون منهم العون والمدد باذلين لهم الغالي والنفيس وإذا بهم وهم الأتقياء الورعون يستعينون بالكفار على إخوانهم المسلمين !! وأرسى الأمريكان وحلفاؤهم قواعدهم في البلاد العربية وأخضعوها لسيطرتهم ، وأجبرهم الأمريكان على تغير مناهج التعليم الديني في بلادهم ولم نسمع لعلمائهم صوتا يعارض أو يتهم حكوماتهم بالخيانة والعمالة . ونحن إذ نقول هذا ليس من باب الشماتة – فاللهم لا شماتة – فهم إخواننا في الإسلام والعروبة إنما نقوله هذا من أجل أن نتعلم من أخطائنا وألا نكررها وأن نفقه الواقع المر الذي نعيش فيه ذلك الواقع الذي كان في تجاهله ضياع بلاد الإسلام وضياع هيبة المسلمين .

فماذا جنى النصيون الحرفيون من جهلهم بموازين القوى العالمية ومن ملاحقة التطور الحادث في مجالات العلم و التقدم التكنولوجي المتنامي ؟ ماذا جنى هؤلاء من إكالة السباب لأعداء الإسلام من الغرب المسيحي أو لعميلتهم في الشرق إسرائيل، ومن إكالة السباب – أي والله السباب – للمسلمين واتهامهم بالخروج على الدين والسير في ركب الغرب الكافر وعدم الحكم بشرع الله كما يفهمونه هم ؟

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المصلحة الرجوع إلى كتابنا " المدارس السلفية " الباب الأول الفصل الخامس " بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد " .

ماذا جنى هؤلاء من ترديدهم لبعض الأحاديث الشريفة بلا فقه ، ولبعض الآراء لبعض السلف دون وعى ؟

ماذا جنى هؤلاء من عدم فهم الدين الفهم الصحيح العصري واقتصارهم من الدين على إرسال اللحية وتقصير الجلباب ، ولبس النقاب وتحريم التصوير والغناء ... وجعل الحرب حرب دفاع عن هذه الأمور ، وحرب هجوم على من خالفهم فيها ؟

ماذا جنى هؤلاء من عدائهم للمسلمين الذين يختلفون معهم في الرأي ويأخذون بآراء الفقهاء والعلماء التي تتناسب وحياتهم ومعيشتهم ؟

لقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه المفاهيم أن انتشر الإرهاب باسم الدين ، وانتشر التخلف باسم الدين ، وارتكست الأمة وتراجعت مكانتها ، واحتلت أراضيها وديست كرامتها .

وبعد هذا الحديث الطويل عن العقل ودوره في فهم كتابي الله المقروء والمشاهد ، وكتابي : الإنسانية التاريخ ، نتحدث عن نشأة الفرق الإسلامية ، وعلم الكلام ، ونشأة السلفية كرد فعل لهذه الفرق والجماعات .

نشأة الفرق الإسلامية

في عهد النبوة والصحابة كان هناك اتفاق فيما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو ما كان ظاهرًا متواترًا من أحكام الدِّين، معلومًا عند الخاصِّ والعامِّ دون نظر ولا تأمل وجوباً أو تحريماً ، مثل: توحيد الله تعالى ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص أو عيب ، وأن الملائكة خلق الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأن رسل الله تعالى مبعوثون لهداية البشر وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأن هناك بعثاً وحساباً بعد الموت وأن الأبرار في نعيم وأن الفجار في جحيم ، كذلك من المعلوم من الدين بالضرورة أركان الإسلام الخمس وتحريم الزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين والسحر والقتل والسرقة والغش والسرقة والكذب ... إلى غير ذلك من المسائل التي ينتشر بين المسلمين وجوبها أو تحريمها في العقيدة والشريعة .

أما الاختلافات فقد حدثت في بعض الأمور الجزئية غير قطعية الثبوت والدلالة واجتهد فقهاء الصحابة في فهمها ، ولم يترتب على اختلافهم فيها فُرْقة أو خلاف إنما وقعت الفرقة والخلاف بسبب السياسة وليس الدين .

واختلف صحابة رسول الله كثيراً في غير المعلوم من الدين بالضرورة إما بسبب عدم علمهم بالنص أو بسبب اجتهادهم في فهمه .

قال ابن القيم :" أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً " (١)

وكان الصحابة وتابعيهم بإحسان يتقبلون هذه الآراء المختلفة بالقبول الحسن لما فيها من سعة ورحمة ، ويتخيرون منها ما ترتاح إليه قلوبهم وتطيقه نفوسهم أو يجتهد علماؤهم فينشئون آراءً جديدة .

ولم يعرف الصحابة وتابعيهم بإحسان المعارك الكلامية حول الآراء الفقهية ؛ فقد كان يشغلهم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وإعلاء رايته ، والسعي على الرزق ولكن مع الفتنة الكبرى بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما ظهرت الفرق السياسية مثل : الشيعة والخوارج ثم ما لبثتا أن تحولتا إلى فرق دينية تستمد من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة أو الموضوعة حجيتها.

يقول رشيد رضا " تلقى العرب الأميون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في بيانه بالقبول ؛ إذ لم يكن لديهم فلسفة دينية يحكمونها في دين التوحيد الفضيلة ، بعد أن اجتث الله به شجرة الشرك الخبيثة ، ولا كان لديهم تقاليد تشريعية يعقدون بها شريعته العادلة النقية ، فسهل فهم الشعوب والأمم له منهم ، وتلقوه بالقبول عنهم ، فلم يلبث الألوف من مواليهم الأعاجم منذ العصر الأول والثاني أن حذقوا لغة هذا الدين ففهموا كتابه المنزل ، وشاركوا أساتذتهم العرب في نشر الدعوة وتدوين اللغة والسنة ، ثم فيما استلزم ذلك من فتح الأمصار ، ونشر دين الله في الأقطار ، انتشر الإسلام في الشرق والغرب بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ ، فبلغ ملكه في جيل واحد ما لم يبلغ ملك الروم (الرومان) في ثمانية قرون ، فكانوا أعظم دول الفتح والاستعمار في الأرض ، وأشدها مراعاة للرحمة والعدل . (٢)

نشأة علم الكلام

لما اتسعت رقعة الإسلام وفتح المسلمون بلاد فارس والروم البيزنطيين حتى امتد ملكهم من غربي الصين إلى جنوب فرنسا واختلط المسلمون بسكان هذه البلاد .

---

(١) ابن القيم "إعلام الموقعين " ج ١ ص ٤٩

(٢) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣

وكما انتشر الإسلام بين أهل البلاد المفتوحة انتشر بين المسلمين علومهم ومعارفهم وفلسفتهم ، وبدأت المعارك الكلامية حول الإسلام والأديان القديمة السماوية مثل : اليهودية أو المسيحية أو الوضعية مثل : المانوية والزرادشتية والمزدكية وغيرها ، وظهر علم الكلام الذي يهتم ببحث العقائد الإسلامية وإثباتها بالأدلة العقلية والنقلية والتصدي للتحديات التي فرضها اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى .

ونظراً لانتشار البدع في المسلمين ، وتفشي فلسفة الأمم وتقاليد الملل من أقطارها لذا احتاجوا إلى التوسع في التشريع المدني والقضائي والسياسي ، فوضعوا علم الفقه بداعية حاجة الحكام ، وعلم الكلام لحراسة العقائد من البدع ونظريات الفلسفة المختلفة ، فاختلط بعقائد الإسلام وأحكامه العملية ما ليس منها ، وخرجت تعاليمه من فضاء السهولة والبساطة واليسر ، إلى مضايق الحزونة والتعقيد والعسر ؛ إذ كان الأعرابي في عهد النبي ﷺ يتعلم من عباداته الشخصية في مجلس واحد ما يكون به مسلمًا ، فصار يتعذر على المسلم الناشئ بين المسلمين أن يتعلم مذهبه الديني الموروث في عدة سنين ؛ لأن الأحكام كثرت بأقيسة المذاهب وتفريعاتها ، وعسر فهمها بضعف لغة المصنفين لكتبها ، فضاق ذرع الأمة بها ، وانحصر الطالبون لتحصيلها في عدد قليل من أهل الأمصار ، يطلبها أكثرهم لأجل الدنيا لا لأجل الدين . (١)

وهكذا كانت نشأة علم الكلام في التاريخ الإسلامي نتيجة ما اعتبره المسلمون ضرورة للرد على ما اعتبروه بدعة من قِبَل هذه الطوائف وكان الهدف الرئيسي هو إقامة الأدلة وإزالة الشُّبَه .

نشأة السلفية

إن طبيعة اللون الفلسفي من ألوان التفكير وطبيعة البراهين التي استخدمها المتكلِّمون قد جعلت هذا الفكر فكر " صفوة " لا فكر عامة وجمهور بل وذلك أن العامة والجمهور قد وقفت بها مداركها عند النصوص بل وعند ظواهر النصوص في أغلب الأحيان .. بل لقد ارتابت العامة في جدوى هذا المسلك الذي سلكه المتكلِّمون ، بل وفي عقائد هؤلاء المتكلمين ! وزاد من هذه الريبة غلو اللاهوتيين

(١) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣

من غير المسلمين في رفض النصوص قد جعل نفراً من المتكلمين يهملون النصوص الإسلامية أو يغضُّون من شان بعض المأثورات أو يؤولونها تأويلاً لا يبرأ من العسر والاعتساف . حتى جاء الوقت الذي خُيِّل فيه إلى العامة والجمهور أن إسلام عرب شبه الجزيرة الأول إسلام النصوص الواضحة البسيطة الغنية عن التأويل ، والذي عرفه الناس زمن البعثة والصحابة والتابعين ، قد أصبح غريباً في هذا الواقع الفكري الجديد . (١)

إن بعض هؤلاء المتكلِّمين غالى في استخدام عقله فتعدى فروع الدين الجزئية التي يجوز الاختلاف فيها ، من أهل الاجتهاد ، إلى المعلوم من الدين بالضرورة الذي لا ينبغي الاختلاف فيه من أهل الاجتهاد فضلاً عن غيرهم فتجرءوا على ثوابت الدين في العقيدة والعبادة والشريعة كما يفعل بعض العلمانيين اللا دينيين في زمننا فهم لا يقبلون من الدين إلا ما وافق هواهم واستساغته عقولهم .

الإمام أحمد ومدرسة أصحاب الحديث

الإمام أحمد بن حنبل أحد الأئمة المشهورين الذي زاد عن الإسلام في عصر انتشرت فيه الآراء الفاسدة في الدين ككثير من آراء الخوارج والمعتزلة والشيعة والجهمية والماتدرية ... الذين تأولوا نصوص الدين وحرَّفوا الكلم عن مواضعه انتصاراً لمذاهبهم من غير دليل شرعي على صحة آرائهم بل ربما وصل بهم الشطط إلى حد التقوُّل على الرسول وإسناد إليه ما لم يقله من أحاديث موضوعة ، وفي هذه الظروف ومع تلك المذاهب رأى الإمام أحمد أن يغلق على المسلمين أبواب الفتن وأن يعتصم بالحديث النبوي الشريف وآراء الصحابة بلا تأويل لتلك النصوص يصرفها عن ظاهرها ذلك التأويل الذي كان في ذلك العصر سلاح المذاهب الفاسدة فأراد أن يجردهم من أهم أسلحتهم ألا وهو سلاح القول في الدين بالرأي وتأويل النصوص على حسب الهوى ؛ فعمد إلى أحاديث النبي فجمع أكبر قدر منها – وإن كان ضعيفاً – كما جمع ما بلغه من آراء الصحابة وفتاويهم ليكون هناك مرجعية نصية لهذا الدين يحتكم إليها بدلاً من فوضى الآراء الفاسدة التي تستمد مرجعيتها من نفس أمارة بالسوء أو هوى متبع أو عقل مأفون أو فلسفة وثنية أو أديان سماوية منسوخة أو ديانات بشرية باطلة مزهوقة كتلك الآراء التي تسللت

---

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ١٢

للمتصوفة ، والخوارج ، والشيعة ، والجهمية ، والقدرية ، والمعتزلة ، والماتدرية ... لقد كان أحمد بن حنبل أشبه ما يكون بِمُحَدِّثي عصر الصحابة لا فقهائهم أقرب لعبد الله بن عمر بن الخطاب لا لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وكان عصر الإمام أحمد قريب عهد بعصر النبوة فلم يكن هناك اختلاف كبير بين العصرين في طبيعة الحياة فلم تكن آراؤه تصدم واقعه أو تشق على الناس أو توقعهم في الحرج ، ومن لم يعجبه مذهب الإمام أحمد النصي فأمامه مذاهب فقهية أخرى كمذاهب الأئمة الفقهاء (أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والجعفري ، وعبد الله بن المبارك ...)

الأصول التي بنى عليها أحمد بن حنبل فتاويه

بنى أحمد بن حنبل فتاويه على خمسة أصول هي :

الأصل الأول : النصوص فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائناً من كان .

الأصل الثاني : الصحابة فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف لها مخالف منهم فيها لم يعدها إلى غيرها ، ولم يقدِّم عليها عملاً ولا رأياً ولا قياساً .

الأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخيَّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكي الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

الأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وهو الذي رجَّحه على القياس .

الأصل الخامس : القياس فإذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص ولا قول الصحابة أو واحد منهم ولا أثر مرسل أو ضعيف عدل إلى القياس فاستعمله للضرورة .

فهذه الأصول الخمسة من أصول فتاويه وعليها مدارها وقد يتوقف في الفتوى لتعارض الأدلة عنده أو لاختلاف الصحابة فيها أو لعدم اطلاعه فيها على أثر أو قول أحد من الصحابة والتابعين .

وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف كما قال لبعض أصحابه إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام وكان يمنع من استفتاء من يعرض عن الحديث ولا يبني مذهبه عليه ولا يسوغ العمل بفتواه . (١)

وهكذا .. وعلى هذا النحو أضفت الحركة السلفية الحنبلية القداسة على النصوص والمأثورات ووقف منهجها النصوصي عند هذه النصوص والمأثورات ، بل لقد وقف عند ظواهرها عندما رفض أن يعمل فيها الرأي أو الاجتهاد أو التأويل أو القياس ، حتى عندما كانت تتعارض وتتناقض نصوص هذه المأثورات ومضامينها.

في أمور الدين ، لا الدنيا ، يكاد يتفق علماء الإسلام على أنه لا مجال للرأي أو الاجتهاد إذا وجدت النصوص ، لكن العلماء المجتهدين ، من غير أتباع السلفية الحنبلية ، يشترطون في النصوص التي لا اجتهاد معها أن تكون " قطعية الدلالة وقطعية الثبوت " بمعنى أن تكون دلالتها واضحة وقاطعة ، لا تقبل الاحتمالات وأن يكون ثبوتها قطعيّاً من حيث الرواية ، والأكثرون يشترطون في النصوص الدالة على الأمور اعتقادية أن تكون " متواترة " ولا يقبلون الإلزام في هذا الباب بأحاديث الآحاد .

أما إذا لم تكن النصوص قطعية الدلالة وقطعية الثبوت فإنهم ، غير السلفية الحنبلية ، لا يرون وجودها مانعاً من إعمال الرأي فيها والاجتهاد معها .

فالاجتهاد مع النصوص ، في هذه الحالات ، أمر وارد ، بل ومقرر عند غير السلفيين (الحنابلة) من العلماء . (٢)

الموقف الذي وقفه السلفيون الحنابلة من الرأي وقفوه من القياس أيضاً فقد رأوا أن النصوص والمأثورات قد أحاطت بحكم جميع الحوادث ، الماضي منها والحاضر والمستقبل ، ومن ثمَّ فلا حاجة للقياس كما أنه لا حاجة للرأي ؛ لأن النص إذا وجد، وهو دائماً موجود ، فلا قياس .

واتساقاً مع منهج السلفية النصوصي رفضوا " التأويل " الذي هو : صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله بل ذهبوا إلى أن التأويل هو الذي أفسد سائر الأديان ، وحولها عن الاستقامة والسداد . (١)

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج١ ص ٢٩ -٣٣ بتصرف .
(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

وينبغي فهم آراء الإمام أحمد الداعية في الاعتماد على النصوص والمأثورات لا على الرأي والقياس والاستحسان في إطار ظروف عصره الذي لم يكن الحديث الشريف قد تم جمعه جمعاً كاملاً ولم يكن قد تم بيان الصحيح منه وغير الصحيح ، ويكفي أن نقول أن الكتب الستة أصح الكتب في الأحاديث لم تكن قد جمعت بعد ؛ ولم يكن قد تم شرحها وبيانها ، ولم يكن علم أصول الفقه قد انتشر بالشكل الكافي ؛ ولم يكن قد تم انتشار كتب علوم العربية من نحو وصرف ولغة وبلاغة ولا غيرها من العلوم التي تعين على فهم الدين الفهم الصحيح إنما ما كان قد تم منها فهو مجهودات فردية لم يكتب لها الذيوع والانتشار ولم تقم لها المدارس التي تقوم على تعليمها ، ومما أفسد الحياة العلمية آنذاك كثرة المذاهب الدينية والسياسية واستخدم الدين لتحقيق مصالح دنيا وكثرة علماء السوء وانتشار قالة الباطل ووضع الأحاديث.

أحمد بن حنبل فقيه أم محدث ؟

يقول الإمام أحمد عن مسنده : " إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فإن كان فيه وإلا ليس بحجة " [٢] ويقول أيضاً عن مسنده : " عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله ﷺ رُجع إليه " [٣] والإمام أحمد في عمله هذا يعد أقرب للمحدِّثين مثل : البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود منه إلى الفقهاء المجتهدين : مالك وأبو حنيفة والشافعي والليث بن سعد ... والذي يؤكد ذلك :

١- حرص الإمام أحمد الشديد على جمع الحديث في كتاب " المسند " الذي يعد موسوعة كبيرة تشتمل على ما يزيد على ثلاثين ألف حديث " بإسناد أبى بكر وعمر وعثمان وعليٍّ وأئمة الصحابة وينتهي بأسانيد الأنصار والمكيين والمدنيين وأهل الكوفة والبصرة والشاميين وقد ذكر العلماء أن الإمام لم يكن يقتصر في روايته على الحديث القوى ولذلك لم تبلغ أحاديثه في صحتها مبلغ أحاديث البخاري ومسلم التي يضعها المحدثون في الدرجة الأولى من الصحة بل أن فيها كثيراً من

---

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٣١ .
(٢) " إسلام بلا مذاهب " د. مصطفي الشكعة ص ٤٩١
(٣) نفسه ص ٤٩١

الأحاديث الضعيفة وفي عبارة ابن حنبل نفسه ما قد يشير إلى ذلك حيث يقول " قصدت في المسند الحديث المشهور وتركت الناس تحت ستر الله تعالى ولو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء . " (١)

٢- عدم ترتيب مسنده بحسب الموضوعات الفقهية كما فعل الفقهاء السابقين عليه أو اللاحقين به فقد " رتب مسنده حسب الصحابي الذي روى الحديث فيجمع في موضع واحد كل الأحاديث التي رواها ذلك الصحابي ثم تتبع بالأحاديث التي رواها صحابي آخر وهكذا ، والكتاب بهذا يخالف في منهجه ما سارت عليه كتب الحديث من قبله مثل " الموطأ " ومن بعده مثل " الجوامع الصحاح " فكلها مرتبة بحسب الموضوعات الفقهية وغير الفقهية ولذلك لاحظ العلماء أن الكتاب تصعب مراجعته للاستشهاد به في المسائل الفقهية . " (٢)

٣- لم يفرد الإمام أحمد كتاباً مستقلاً للفقه كغيره من الفقهاء ككتاب " الموطأ " الإمام مالك وكتاب " الأم " للإمام الشافعي وكتاب " الفقه الأكبر " الذي ينسب للإمام أبى حنيفة . " ولم يضع ابن حنبل كتباً في الفقه على نمط خاص به وكل ما روى له في الفقه مسائل سئل عنها فأفتى فيها وإنما رتب المذهب وبوبه ودونه أتباعه فإن نحن نظرنا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقيها ، وجدنا ابن حنبل أكبر أثرا في الحديث منه في الفقه . " (٣)

٤- تحذير الإمام أحمد تلامذته من تدوين آرائه الفقهية " ولم يذكر المؤرخون أن ابن حنبل وضع كتاباً في الفقه على نمط خاص به وإنما كل ما يروى عنه فيه مسائل سئل عنها فأفتى فيها وهناك نصوص تؤكد أنه حذر تلاميذه من تدوين آرائه الفقهية خشية أن تحل محل القواعد العامة التي يجب أن يكون مرجعها الكتاب والسنة فحسب . " (٤)

٥- تصريح بعض العلماء بأن ابن حنبل لم يكن فقيهاً بل كان محدِّثاً مثل الإمام الطبري وابن قتيبة وابن عبد البر والمقدسي وابن خلدون وغيرهم من القدماء

---

(١) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين الهيئة العامة للكتاب ص ١٠٩
(٢) نفسه ص ١٠٩
(٣) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ٢٣٦ الهيئة المصرية للكتاب .
(٤) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين ص ١١١

وأحمد أمين وغيره من المحدثين " فقد كان هناك من يصفه بأنه رجل حديث لا رجل فقه كما فعل ابن جرير الطبري الذي ثارت عليه الحنابلة وكما فعل بعض العلماء الذين اقتصروا في دراستهم للفقهاء على الأئمة الثلاثة : أبى حنيفة ومالك والشافعي . " (١)

ويقول د. أحمد أمين : " ولا خلاف في عدِّ أحمد بن حنبل من كبار المحدثين ولكن الخلاف في عده من الفقهاء فابن جرير الطبري ..كان يقول هو رجل حديث لا رجل فقه .. ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه " المعارف " بين الفقهاء ، وذكره المقدسي بين المحدثين لا في الفقهاء ، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء على الأئمة الثلاثة ، أبى حنيفة ومالك والشافعي . " (٢)

٦- أنه لم يأخذ في أغلب ما أُثِر عنه من فتوى بعلم أصول الفقه الذي يجعل القياس ، والعرف ، والاستحسان ، والمصلحة المرسلة .. من الأدلة الشرعية التي يجب على الفقيه المجتهد أن يأخذ بها أو على الأقل يأخذ بمعظمها لكن لا ينبغي له أن يستغنى عنها جميعاً .

يقول ابن خلدون : " أحمد بن حنبل رحمه الله كان من علية المحدثين.. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما أحمد بن حنبل، فمقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية، وللإخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن . " (٣)

الفرق بين المحدّث والأصولي والفقيه

وفرق كبير بين المحدث والفقيه ليس في الفضل بالطبع فكلاهما خادم للدين بل الفرق في المنهج ، فالمحدث همه جمع الحديث وتتبع رواياته ، ورواته وتمييز الصحيح منه وغير الصحيح ، ولابد أن يتسلح بعلم مصطلح الحديث الذي يشتمل على نحو تسعين علما منها " علوم الرجال والطبقات والتواريخ ، للثقات

---

(١) نفسه ص ١١٠
(٢) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ٢٥٣ ط مكتبة الأسرة .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٧

والمقبولين ، وللضعفاء والمجروحين ... وكانت – هذه العلوم – هي للحديث بمثابة " الأصول " للفقه " [١] .

ويبدأ الفقيه من حيث ينتهي المحدث " فالفقيه يبحث في بيع المكلَّف وإجارته ورهنه وتوكيله وصلاته وصومه وحجه وقتله وقذفه وسرقته وإقراره ووقفه لمعرفة الحكم الشرعي في كل فعل من هذه الأفعال " [٢] ولابد أن يتسلح الفقيه بعدة علوم تعينه على استنباط الحكم الشرعي الصحيح ومن أهم هذه العلوم علم أصول الفقه فهو بالنسبة " للفقيه كمثل علم المنطق بالنسبة لسائر العلوم الفلسفية فهو ميزان يضبط العقل ويمنعه من الخطأ في الفكر كذلك علم أصول الفقه بالنسبة للفقيه يضبط الفقيه ويمنعه من الخطأ في الاستنباط .. فهو الذي يبين حجية القرآن وتقديمه على السنة ، وأنه أصل الشريعة ، ويبين الظني والقطعي ، والمنهاج الذي يرسم عند تعارض ظواهر النصوص ثم يبين تفاوت دلالة العبارة المختلفة فيبين مرتبة الخاص من العام ثم يتجاوز ذات الأدلة إلى المكلفين فيبين من الذي ينطبق عليه الأحكام الشرعية فيطالب بواجبها ويمنع من محرمها ، ويجازى على الطلب والمنع ثم يبين أثر الأحوال العارضة كالجهل بالشرع أو الغلط أو النسيان ونحو ذلك من الأحوال التي تعرض للشخص فتفقده المسئولية أو تخفف منها . "[٣]

ودونك هذا المثال الذي يبين عمل الأصولي وكيف يستنبط الأحكام " القرآن هو الدليل الشرعي الأول على الأحكام ونصوصه التشريعية لم ترد على حال واحدة بل منها ما ورد بصيغة الأمر ومنها ما ورد بصيغة النهي ومنها ما ورد بصيغة العموم أو بصيغة الإطلاق . فصيغة الأمر ، وصيغة النهي ، وصيغة العموم ، وصيغة الإطلاق ، كأنواع كلية من أنواع الدليل الشرعي العام وهو القرآن فالأصولي يبحث في كل نوع من هذه الأنواع ليتوصل إلى نوع من الحكم الكلى الذي يدل عليه مستعيناً في بحثه باستقراء الأساليب العربية والاستعمالات الشرعية فإذا وصل ببحثه إلى أن صيغة الأمر تدل على الإيجاب وصيغة النهي تدل على التحريم وصيغة العموم تدل على شمول جميع أفراد العام قطعاً وصيغة الإطلاق تدل على

---

(١) د . يوسف القرضاوى " المرجعية العليا في لإسلام للقرآن والسنة " مكتبة وهبة ص ٨٦

(٢) عبد الوهاب خلاف "علم أصول الفقه " ص ١٢

(٣) أصول الفقه " الإمام محمد أبو زهرة ص ٦

ثبوت الحكم مطلقاً وضع القواعد الآتية : الأمر للإيجاب ، والنهي للتحريم ، والعام ينتظم جميع أفراده قطعاً ، والمطلق يدل على الفرد الشائع بغير قيد وهذه القواعد الكلية وغيرها مما يتوصل الأصولي ببحثه إلى وضعها يأخذها الفقيه قواعد مسلمة ويطبقها على جزئيات الدليل الكلى ليتوصل بها إلى الحكم الشرعي العملي التفصيلي . "[1]

وكذلك بالنسبة للسنة النبوية فليس كل أمر للنبي ﷺ فريضة كما أنه ليس كل نهي له ﷺ تحريماً ؛ " فالواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من المكلَّف طلباً حتمياً بأن اقترن بما يدل على تحتيم فعله كما إذا كانت صيغته نفسها تدل على التحتيم أو دل على تحتيم فعله ترتيب عقوبة على تركه أو أية قرينة شرعية أخرى "[2] كالصلاة ، والصيام ، وبر الوالدين ، والصدق ، وأداء الأمانة ....

أما المحرم فهو " ما طلب الشارع الكف عن فعله حتماً بأن تكون صيغة الكف نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ } (النساء : ٣) وقوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } (الأنعام : ١٥١) أو { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ } (النساء : ١٩) أو يكون النهي عن فعله مقترنا بما يدل على أنه حتم مثل { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً } (الإسراء : ٣٢) [3]

وواضح مما سبق أن هناك فرقاً كبيراً بين علماء الحديث وعلماء الأصول والفقهاء ، وأنهم جميعاً لا غنى لأحدهم عن الآخر ، فالمحدث يجمع الأحاديث ويصنفها : صحيح ، مشهور ، ضعيف ، موضوع .. والأصولي يضع القواعد العامة لكيفية استنباط الأحكام من مصادر التشريع القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، المصلحة المرسلة ، والعرف ، الاستصحاب ، شرع من كان قبلنا ، ومذهب الصحابي . ثم يأتي دور الفقيه ليطبق هذه القواعد العامة على فروع الشرع وجزئياته ليقول مثلاً : أن صوم رمضان فريضة ، وصوم يوم الشك حرام ، وصوم ست من شوال سنة ، وأن السحور مستحب ، وأن اغتسال الصائم مباح ... ويدلل على كل حكم بالأدلة الشرعية .

---

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ١٣
(٢) نفسه ص ١٠٥
(٣) نفسه ص ١١٣

الواقع أن عمل الفقيه متمم لعمل المحدثين وحارس للسنة من أي خلل قد يتسلل إليها عن ذهول أو تساهل . إن في السنة متواتراً له حكم القرآن الكريم وفيها الصحيح المشهور الذي يفسر العموم والمطلق في كتاب الله وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي اشتغلت بها المذاهب الفقهية وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعلة كامنة فيه وفي عصرنا ظهر فتيان سوء يتطاولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة ولا استهانوا بحديث صحت نسبته وسَلِمَ متنه وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض المرويات فردوها – وفق المنهج العلمي المدروس – وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سبيلاً وهم بهذا يتأسون بالصحابة والتابعين ... من أجل ذلك فإن أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب يعتمد على القرآن الكريم أولاً فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه وإلا فالقرآن الكريم أولى بالاتباع وحديث الأحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة وإن صح سنده . (١)

ولابد للفقيه أن يكون أصولياً – عالماً بعلم أصول الفقه – وليس شرطاً أن يكون الفقيه محدثاً ما دام يعتمد على كتب الصحاح التي صنفها علماء الحديث .

وليس كل محدِّث فقيهاً فغالباً ما يقتصر المحدِّث على جمع الأحاديث الصحاح وتصنيفها في أبواب ليسهل رجوع الفقهاء إليها كما فعل أئمة الحديث كالبخاري ومسلم والترمذي ... وإن أثر عنهم بعض الفتوى أو أراء في قضايا دينية فهي من قبيل الاجتهاد الشخصي الذي لا يرقى إلى أن يكون مذهباً فقهيّاً متبعاً .

وهذا لا يمنع أن يكون الفقيه مُحَدِّثاً فقد كان الإمام مالك فقيهاً ومحدِّثاً .

استمرت مدرسة أصحاب الحديث التي أنشاها الإمام أحمد منتشرة نحو ثلاثة قرون من الزمان حتى ضعفت الخلافة العباسية الداعمة لها وبدأ زحف المماليك لوراثتها ، والمماليك جند مرتزقة غرباء عن العرب المسلمين حضاريّاً وقوميّاً وبسيطرتهم على مقاليد الحكم ومقدرات الأمة فشت البدع والمظالم ، وغالبت عقائد السلفية حتى غلبتها . (٢)

---

(١) محمد الغزالي " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " ص ١٦،١٧

(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٠

السلفية الإصلاحية

وبضعف الخلافة العباسية لم تَبْتَلِ الأمة الإسلامية بتفشي البدع والمظالم في الداخل فحسب بل بدأ تهديد المعتدين (التتار والصليبيون) لها من الخارج .

وفي هذا العصر قلَّ الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان، وأقفل باب الاجتهاد وسيطرت نزعة التقليد والجمود، وأصبح قصارى جهد كثير من العلماء هو جمع وفهم الأقوال من غير بحث ولا مناقشة، فأُلِّفَتْ الكتب المطولة والمختصرة، ولكن لا أثر فيها للابتكار والتجديد، وهكذا عصور الضعف تمتاز بكثرة الجمع وغزارة المادة مع نضوب في البحث والاستنتاج .

وفي تلك الأثناء التي انعدم فيها المدافع عن تعاليم الإسلام من المبتدعة والمدافع عن بلاد الإسلام من المعتدين بدأت صحوة الحركة السلفية وكان من أبرز أعلامها

أبو الوفاء ابن عقيل (٤٣١- ٥١٣ هـ)

وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨ هـ)

وابن قيم الجوزية (٦٩١- ٧٥١ هـ)

ولقد واصلت الحركة السلفية في صحوتها هذه السير على منوال العقائد التي صاغها ابن حنبل ومعاصروه ونهجت النهج النصوصي الذي بلوروه مع إضافات عديدة طرحتها مواجهتهم لما استجد من بدع وخرافات ومع مرونة ملحوظة في الموقف من القياس والتأويل فرضتها التعقيدات التي طرأت على المجتمعات التي عاشوا فيها والأبنية الفكرية التي تصارعت في هذه المجتمعات . (١)

مما يؤخذ على السلفية الإصلاحية إفراطها في الحديث عن ذات الله وصفاته، والرد على من خالفهم من المتأولين ، ولم يعرف من توسع في الحديث عن هذا الموضع قبلهم ، ولا من تكلم فيه بعدهم إلا اقتداء بهم .

والعجيب أن المدرسة السلفية الإصلاحية ومن نحا نحوها قد وضعوا أنفسهم في حرج كبير بإنكارهم المجاز في اللغة والقرآن الكريم ، وعدم قبولهم برأي من تأول بل معاداتهم وتكفيرهم مما جعل أعداءها يتهمهم بالتجسيم ويحكم عليهم بالكفر !!

---

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٠

الوهابية والعودة إلى المدرسة الحنبلية

لقد حاول ابن عبد الوهاب أن ينهج نهج ابن تيمية في محاربة البدع وأهلها وتنقية التوحيد وإن كان لم ينهج نهجه في مجال التشريع فالمسائل التي تعكسها المبادئ الكبرى التي وضعها ابن عبد الوهاب هي في المقام الأول ذات طبيعة عقدية وتستهدف تنقية العقيدة ، التي ليست في النهاية سوى التوحيد النقي ، لقد قدَّر ابن عبد الوهاب فعلاً أن إيمان معاصريه ابتعد إلى درجة كبيرة عن الأصول التي كان عليها السلف الصالح ، وأن المجتمع الذي يحيط به دخل مجدداً في حالة الجاهلية شبيهة بتلك التي سبقت ظهور الإسلام .

ولا يكفي المرء بحسب ما يراه ابن عبد الوهاب أن يعلن الوحدانية لله ليكون مسلماً بل لابد أيضاً أن ينعكس هذا الإعلان في العبادات . وهنا يكمن الخلاف الذي يقيمه ابن عبد الوهاب بين مبدأ الاعتراف بوحدانية الله أو توحيد الربوبية من جهة ومبدأ توحيد الإلوهية من جهة ثانية . هذا المبدأ الأخير كانت تخالفه الممارسات الدينية المختلفة التي كانت منتشرة في الجزيرة على نحو تقديس الأولياء (وفيها يقع التوسل والتشفع) وكذا التشيع ، تأسست الوهابية على هذا النحو إذن ضد الممارسات أساساً وهي الممارسات التي أنكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بوصفها أشكالاً من الشرك .

لكن الوضوح الذي يبدو في مواقف ابن عبد الوهاب في ميدان العقيدة لا يضاهيه وضوح بنفس الحجم في مواقفه في مجال الفقه ذلك لأنه أولاً وقبل أي شيء يحتل مكانة أقل مركزية في مشروعه ، ويعتبر موقفه المبدئي أن المعايير الوحيدة لصحة الفتوى يجب أن تعتمد على القرآن الكريم والسنة وإجماع السلف الصالح .

ويرتكز هذا المسعى من الناحية النظرية إلى نفي سلطان التقليد الذي تمثله المذاهب الفقهية الأربعة وتحويل الاجتهاد إلى عمود العملية الفقهية ، بيد أن ابن عبد الوهاب استمر من ناحية الممارسة العملية في الاعتماد على المذهب الحنبلي في مسائل الفروع ، وكان هذا بالضبط ما ذكره عندما وصف نفسه في رسالة وجهها إلى علماء المدينة المنورة بأنه " متبع غير مبتدع " للمذهب الفقهي الحنبلي وهو بذلك سعى إلى إثبات الطابع السلفي الحنبلي لدعوته .

في الواقع لقد ثبت أنه لم تصدر لابن عبد الوهاب أية فتوى جديدة وأنه كان غالباً ما يكتفي باجتهاد نسبي لا يخرج عن المذهب الحنبلي .[1]

ولقد وجهت عدة انتقادات للوهابية أهمها :

١- نقل مسائل الفروع المختلف عليها إلى الأصول التي يجب الإيمان بها ، مثل مسائل البناء على القبور، والتوسل بالأنبياء والأولياء .

٢- الإفراط في تكفير وتضليل كل من هو على اختلاف معهم وتكفير أئمة الشيعة الإمامية وأكثر الصوفية بل وكثير من أهل السنة كذلك !! لقد ساوى ابن عبد الوهاب بين المسلمين الموحدين الذين يتوسلون في دعائهم بالنبي فقط بمشركي مكة الذين يعبدون الأصنام !!

٣- استخدامهم القوة في فرض الدعوة وإلزام الناس بها ، وعدم التسامح مع المخالفين لهم مع أن نصوص الدين قطعية الثبوت والدلالة تدعو إلى عدم إكراه الناس في الدين والدعوة يجب أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وأن الغلظة في مجال الدعوة منفِّرة .

{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ }(البقرة : ٢٥٦)

فالإسلام يمنع إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام فما بالك بمن يُكْرِه بالقوة أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى على الدخول في مذهبه !!

٤- الخروج على الخلافة الإسلامية العثمانية، حيث سعى محمد بن عبد الوهاب لإقامة مذهبه بالقوة والسيف، فاستولى على قسم كبير من الجزيرة العربية، وهاجم الكويت وساحل عمان ودمشق وكربلاء والنجف .

٦- هدم الشواهد والآثار النبوية المتبقية مثل ما فعلوا بمكان ولادة النبي محمد بن عبد الله، ومكان عيشه في مكة، وبستان الصحابي سلمان الفارسي حيث كانت هناك نخلة غرسها النبي محمد بن عبد الله، وبيت الصحابي أبو أيوب الأنصاري، وردم بئر العين الزرقاء، وبئر أريس (بئر الخاتم)، وبئر حاء، وغيرها ..

---

(١) ستيفان لاكوروا " سلطة الحديث في السلفية المعاصرة " ترجمة عومرية سلطاني وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية ص ٦

٧- تحريمهم الاحتفال بالأعياد والمناسبات من ذكرى مولد ونحوه باعتبار ذلك عبادة لمن يحتفل بمناسبته وتعظيم له .[١]

السلفية النهضوية

ظهرت الدعوة السلفية النهضوية بشكل مختلف - في جوانب متعددة عن السلفية الوهابية ، من خلال رواد كبار مثل: جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم. وقد انتشرت هذه الدعوة في سائر البلاد العربية ، وكثير من البلاد الإسلامية كتركيا ، وأندونيسيا ، وأفغانستان وإيران ، ومسلمي الهند ... ، ومستشرقي الغرب .

ولاقت هذه الدعوة رضى واستحسان كثير من الناس الذين أتيح لهم الاطلاع على علوم الغرب الحديثة ومذاهبه الجديدة كما لاقت صدوداً واستهجاناً من المقلدين أعداء كل جديد .

امتازت السلفية النهضوية بأنها ولدت في آتون معمعة الصراع الحضاري والثقافي مع الغرب المستعمر مما أعطاها حافزاً ودافعاً كبيراً للتجديد في ميادين الدين والسياسة والاجتماع والمعرفة والفكر والثقافة.

ولم يكن هؤلاء الرواد مُنبتِّي الصلة بتراثهم الإسلامي وعلمائهم الأفذاذ بل رسخت أقدامهم في العلوم الإسلامية ، واشرأبَّت أعناقهم لتطالع الجديد من العلوم العقلية والحكمية والطبيعية التي برع فيها الغرب . فجمعوا بين الحسنيين : ثوابت الدين ، ومتغيرات العصر ، أو بين صحيح الدين ، وحقائق العلوم .

وهكذا كان موقف التيار السلفي الإصلاحي وسط بين التغريبيين المتحررين من عُرا الإسلام ، وبين التقليديين المُغَيَّبين عن العصر - فأخذوا الإسلام من منابعه الصافية ، وآمنوا بأنه منهاج كامل للحياة ، للفرد والأسرة والمجتمع والدولة . فنظروا إلى الإسلام بعين ، وإلى العصر بعين ، وحاولوا الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح ، فشرعوا يلتزمون بالسلفية المجددة ، ويوازنون بين الثوابت والمتغيرات ، ويدعون إلى احترام العقل ، وتجديد الفكر ، والاجتهاد في الدين ، والابتكار في الدنيا ، ويقتبسون من أنظمة العصر أفضل ما فيها ، ويرون أن

---

(١) ويكيبيديا الموسوعة الحرة " الوهابية " .

الديمقراطية أقرب ما تكون إلى الإسلام ، بعد أن تتقى من بعض ما بها من شوائب، وأن تطعم بما ينبغي من قيم الإسلام وأحكامه . [1]

مع تقديرنا لمنهج السلفية النهضوية : الأفغاني وتلميذه محمد عبده ، وتلميذه رشيد رضا ، وصديقه الكواكبي ، واجتهادهم في محاولة الجمع بين تحديات العصر ، والثورة العلمية ، وبين نصوص الدين ليثبتوا أن الدين ليس عائقاً ضد التطور والتحديث إنما يواكب كل جديد ويصلح لكل زمان ومكان ، فإنهم – كسائر المجتهدين – لم يسلموا من الخطأ والانحياز لبعض النظريات العلمية التي لم تصبح حقائق راسخة في تفسير الدين ، مثل تفسيرهم السموات السبع بالكواكب السبع السيارة ومداراتها في أفلاكها [2]، وتفسيرهم حجارة من سجيل في قوله تعالى {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} بميكروب الجدري [3] كذلك إعجابهم بالاشتراكية وإن كان لهم عليها بعض التحفظات .

كذلك مما يؤخذ على السلفية النهضوية إنكار روادها بعض الغيبيات صحيحة النقل بدعوى مخالفتها للعقل .وهذا لا يغض من قيمة هؤلاء المفكرين العظماء ، ولا مما قاموا به من خدمات جليلة لتجديد الدين الإسلامي ، ودنيا المسلمين ، وإيقاظ الغافلين ومحاربة أهل البدع والضلال ، وأهل الكفر والإلحاد ، والمفتونين بكل غربي مستورد الكارهين لكل إسلامي أصيل .

الألباني ومدرسة الحديث الجديدة

إذا كان أحمد ابن حنبل هو رائد مدرسة الحديث وإمامها فإن الألباني يعد رائد مدرسة الحديث المعاصرة فقد انتصر لظاهر الحديث الصحيح وقدَّمه على رأي الصحابة والتابعين ، ورأي الفقهاء الأربعة الأعلام الذين أجمعت الأمة على إمامتهم في الفقه (أبو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، أحمد) وقدم ظاهر الحديث على العقل ، والمصلحة بل إنه جعل السنة قاضية على القرآن الكريم !!

ويحمد للألباني وكل أنصار السنة دفاعهم عن السنة النبوية الشريفة ، وتنقيتها من الموضوع والضعيف ، وجهد الألباني في هذا الصدد لا ينكر ، وتصنيفه لسلسلتي

---

(١) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " دار الشروق ص ٩
(٢) مجلة المنار ج ١٤ ص ٣٤٠
(٣) مجلة المنار ج ١٤ ص ٦٧٤

الأحاديث الصحيحة ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة ما ندعو الله أن يجعله في ميزان حسناته ، وما عمله الألباني يجعله أحد المحدثين الذين يعملون على الحفاظ على صحيح السنة المطهرة وتنقيتها مما علق بها من شوائب غير صحيحة ، ولقد سبقه إلى ذلك أئمة أعلام مثل : مالك ، البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، والحاكم ، والسيوطي .. وغيرهم .

لكن الألباني لم يكتف بعمله كمحدث إنما راح يزاحم الفقهاء في الإفتاء في أمور الدين وقضايا العصر بل إنه أعلن الحرب على كل الفقهاء ففي رأيه إنه لا ينبغي للمسلم اتباع علماء الفقه والأصول ولا حتى صحابة رسول الله إنما يجب الأخذ بظاهر الحديث الشريف الذي صحَّ لديه دون اعتبار لعقل أو مصلحة أو مقاصد الشريعة العليا أو أي اعتبار آخر وضعه علماء الأصول ؛ لأن كل ما وضعه علماء الأصول من قواعد لاستنباط الحكم باطلة فمصادر التشريع اثنان لا ثالث لها القرآن الكريم ، والحديث الشريف فقط لا غير ، ولا يلتفت لقول سلف أو خلف إن خالف ظاهرهما وأن القرآن لا يفهم إلا بالسنة وإذا تعارضا فإن الحديث يقضي على القرآن !

يقول الألباني : " قال بعض السلف : السنة تقضي على الكتاب " (١)

وهذا القول ليس قرآناً كريماً،ولا سنة مطهرة،ولم يقل به أحد من صحابة رسول الله ﷺ ولا من تبعهم بإحسان إلا قوم منهم مكحول والزهري عفا الله عنا وعنهم .

وقد أنكر أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث على من قال السنة تقضي على الكتاب فقال بل السنة تفسر الكتاب وتبينه .

والذي يشهد الله ورسوله به أنه لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله ﷺ تناقض كتاب الله وتخالفه ألبتة . (٢)

ونحن نكره التعصب للمذاهب الفقيه على حساب الأدلة الشرعية ، كما أننا لسنا مع العمل بظاهر النصوص ، إن خالفت العقل الصريح والمصلحة المؤكدة ، والحقائق العلمية ، وفقه الواقع المعيش ، ومقاصد الإسلام العليا . فإذا كان لا فقه بغير حديث فكذلك لا حديث بغير فقه أيضاً .

---

(١) ناصر الدين الألباني " منزلة السنة في الإسلام " ص ١٢

(٢) ابن قيم الجوزية " الطرق الحكمية في السياسة الشرعية " ص ١٠٧

نحن مع الفقه المستقل فقه المجامع الإسلامية التي تأخذ من آراء الفقهاء الأحكام بأدلتها ، وما يناسب العصر وفقه الواقع من آرائهم ، وتفتي بما يناسب الزمان والمكان والحال فيما يستجد من أمور ولا تخرج على مقاصد الشريعة الإسلامية ومصلحة الأمة ورفع الحرج عنها .

السلفية الجهادية

السلفية الجهادية مصطلح يطلق على ذلك التيار الذي يدَّعي أنه يتبع منهج سلف المسلمين وأن الجهاد أحد أركانه وأن الجهاد الذي يجب وجوباً عينيّاً على المسلمين يتم تطبيقه ضد العدو المحتل وضد النظام الحاكم المبدِّل للشريعة الإسلامية ويحكم بالقوانين الوضعية أو النظام المبالغ في الظلم والقهر .

لقد أنشأ السلفيةَ الجهاديةَ مجموعةٌ من الشباب المتحمس صغير السن قليل العلم عديم الخبرة بفقه الواقع ومصلحة الأمة ، وكانت الظروف التي نشأت فيها تلك التنظيمات الجهادية شديدة التعقيد ، حالكة السواد ، ليس فيها بارقة أمل في التغيير والإصلاح ؛ فقد ادلهمت في أواخر الخمسينات من القرن العشرين وطوال عقد الستينات الخطوب ، وكثرت فيها المظالم ، واستبدل حكامها الشيوعية بالإسلام ، والديكتاتورية بالديمقراطية ، وتصفية الخصوم جسديّاً بالحوار ، والنظام البوليسي بالأحزاب السياسية ، وكان هؤلاء الشباب ممن اصطلوا بنار هذا النظام ورأوا من ألوان العذاب في السجون والمعتقلات مالا يصدقه إنسان .

أهم مبادئ السلفية الجهادية

والسلفية الجهادية تؤمن بعدة مبادئ تميزها عن سائر المدارس السلفية الأخرى منها :

المبدأ الأول : مبدأ الحاكمية لله الذي يعني أن تكون مرجعية التشريع الوحيدة في الدستور والقوانين هي الشريعة الإسلامية بما تحمله من مصادر أصلية وفرعية وتعني أن الحكم والتشريع هو حق خالص للخالق، فأي إضافة مساوية أو إباحة للأخذ من مرجعية أخرى بجانب الشريعة الإسلامية فهذا شرك وكفر بالله الخالق .

وهم بذلك يخالفون ما نادت به السلفية الإصلاحية والنهضوية من وجود " الشرع المُتَأَوَّل " الشامل لاجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء وتشريعات الحكام والولاة الذي

يمكن أن نسميه " تراث الأمة القانوني والسياسي " الذي أصبح مما يندرج تحت مصطلح " الشرع والشريعة " وإن لم تكن له قدسية الدين وإلزام " الشرع المُنَزَّل " لجميع المؤمنين فهنا نمو في "الشريعة والشرع " ولكنه نمو يتكون منه " بناء قانوني " ذو " طبيعة مدنية " وليس دينية . (١)

المبدأ الثاني : مبدأ الولاء والبراء ويعني أن تكون الدولة قائمة على أساس إسلامي ديني وليس شعوبي قومي ولاؤها للإسلام والمسلمين ومعادية للشرك والمشركين دولة تتبنى الإسلام في سياستها الداخلية ليصبح المسلمون في موضع عزة وتحكم في مفاصل الدولة المهمة، وفي السياسة الخارجية هدفها إعلاء كلمة الله وإقامة دولة إسلامية عالمية قوية، دولة معادية للأنظمة المحاربة وغير الشرعية (والنظام الشرعي من وجهة النظر الفقهية السلفية إما أن تكون الدولة: إسلامية تحكم بالشريعة أو ذمية تدفع الجزية أو معاهدة) .

والحقيقة أن الدولة في الإسلام دولة مدنية ولم يعرف تاريخ الإسلام كله الحكم الثيوقراطي ، حكم البشر المتألهين ، حكم فرعون موسى { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ } (غافر: ٢٩) ذلك الحكم الذي عرفته الأمم الكافرة قديماً وساد أوربا في العصور الوسطى عصور الظلام والجهل .

أما الخلفاء المسلمون المهديون فدستور حكمهم " إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم . "

حتى الخلفاء الظالمون المتجبرون في تاريخ الإسلام لم يدَّع واحد منهم أنه إله أو ابن إله أو حتى يوحى إليه من الله أو أن كلامه قرآن ، وفعله سنة .

يقول كرم زهدي (عضو مجلس شورى الجماعة الإسلامية في مصر) في مراجعاته : " نعم لا حكم إلا الله لكن لا بد للناس من أمير وحاكم يعرف أمورهم بما لا يخالف ثوابت الشرع . فالشريعة المنزلة من عند الله تمثل الحاكمية العظمى، لكن الفقه الذي يطبق الشريعة على الواقع لا بد أن يكون بالضرورة فقهاً إنسانيّاً

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول أنواع الشرع الرجوع لكتاب " المدارس السلفية " للمؤلف دار زهور المعرفة والبركة الباب الأول ، الفصل الخامس .

متغيراً يواكب مستجدات الزمان والمكان والمصالح والوقائع والأعراف وجميع المتغيرات الإنسانية . فهناك حاكمية ربانية أساسها المبادئ الرئيسية لا تشغل نفسها بالتعامل مع الجزئيات أما حاكمية البشر فهي التي تحكم بالاجتهاد في الفروع والمتغيرات وللبشر أن ينشئوا أحكاماً وقوانين توافق متغيرات عصرهم وتلزم الناس جميعاً ما دامت لا تتصادم مع أحكام الشريعة ." (١)

المبدأ الثالث : مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعية خاصة الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية، والجهاد ضد الدول المحتلة والدول الداعمة للاحتلال والأنظمة العميلة. كان تنظيم الجهاد المصري يركز على جهاد الأنظمة العميلة، في مقابل تنظيم القاعدة السعودي يركز على جهاد الدول المحتلة والداعمة، ثم تحالفا وكونا تنظيم قاعدة الجهاد .

ونترك الرد على مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعية لأمير تنظيم الجهاد السيد إمام عبد العزيز المعروف ، عند الجهاديين ، باسم الدكتور فضل الذي يقول في مراجعاته : " أما من الناحية الشرعية : فإن الصدام مع السلطات الحاكمة باسم الجهاد لا يجوز لعدم توفر كثير من شروطه ووجود بعض موانعه ولغلبة مفاسده على المستويين الخاص والعام .

والرسول ﷺ لم يجاهد ولم يفرضه الله عليه إلا بعد ما توفرت له مقومات الجهاد وهي من شروط وجوبه ومقدمات نجاحه، وهذه لا وجود لها في معظم البلدان، ومنها:

١- دار الهجرة والنصرة : لا دار التخفي، ولم يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة إلا بعدما أخذ من أهلها البيعة على الإسلام ثم على الإيواء والنصرة والمنعة في بيعتي العقبة الأولى ثم الثانية .

٢- التكافؤ في العدد والعدة : فمع انعدام التكافؤ بين طرفي الصدام لا يجب الجهاد، (فالعجز يسقط التكليف والوجوب)، وهذا هو واقع حال الجماعات الإسلامية في معظم بلدان المسلمين .

---

(١) نقلاً عن د. عبد المعطي محمد " شيوخ بلا خناجر " الهيئة العامة للكتاب ص ١٣٨

٣- تأمين ذراري المسلمين (نساؤهم وعيالهم): متعذر، ومن خاضوا الصدام عاد بالضرر على ذراريهم، وفي غزوة الأحزاب جعل النبي ﷺ الذراري في حصن بالمدينة، وهذا يتعذر.

٤- النفقة اللازمة للجهاد: متعذرة وهذا يسقط وجوبه ،ولا يحل نهب أموال المعصومين بذريعة تمويل الجهاد ، ولا يجوز ارتكاب ما لا يحل لأداء ما لا يجب.

٥- الفئة التي يمكن التحيز إليها: لا جود لها، وقال عمر رضي الله عنه: " أنا فئة لكل مسلم " فأين هذا ؟ .

٦- تميز الصفوف متعسر: بما يؤدي إلى قتل من لا يحل قتله من المعصومين والمسلمين حال الصدام .

ومع عدم توفر مقدمات الجهاد ومقوماته ومع وجود موانعه، فلا يجوز شرعًا الإصرار على خيار الصدام مع السلطات لأجل تحكيم الشريعة ويجب الانتقال إلى الخيارات الشرعية الأخرى الميسورة كالدعوة والإصلاح ونحوها، وخصوصاً أن التجارب السابقة أظهرت مفاسد جسيمة ترتبت على هذا الصدام على المستويين الخاص والعام، والقاعدة أن " درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" وأن " الفساد علة التحريم»" وأن " الضرر لا يزال بمثله ولا بأشد منه " وهذا كله يثبت منع الصدام من الناحية الشرعية . (١)

هذه كانت أهم مبادئ السلفية الجهادية وردوهم هم بعد ذلك عليها في مراجعتهم التي بدأت عام ١٩٩٨م .

وهكذا تراجعت السلفية الجهادية المصرية ، معظمها ، عن تكفير الحاكم والسعي إلى الانقلاب عليه ، كما تخلت عن فكرة الحاكمية لله والدولة الدينية ، وارتضت الدولة المدنية والنظام الديمقراطي ، واستبدلت تغيير نظام الحكم عن طريق الانتخابات الحرة بالانقلاب الدموي الجهادي ، وللأسف تمت هذه المراجعات بعدما تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء من المصريين وغيرهم .

نسأل الله تعالى أن يتقبل توبتهم التائبين منهم ويعفو عنا وعنهم ، وفي هذا درس عظيم يجب أن يعيه كل من شرَّفه الله تعالى بالعمل في حقل الدعوة إلى دين الله

---

(١) الدكتور فضل من حديث له عن الأسباب الشرعية والواقعية التي تدعو إلى عدم الصدام مع السلطات بمصر " جريدة الجريدة " بتاريخ ١٧/ ٢ / ٢٠٠٩

تعالى أن يفهم دينه فهماً صحيحاً قبل أن يدعو الناس وأن يفرق بين المقطوع به والمختلف عليه ، فلا ينكر المختلف فيه وإنما ينكر المتفق عليه . (١)

لقد ابتلانا الله تعالى ببعض أدعياء العلم الذي أفسدوا على الناس دينهم ودنياهم ، وأثاروا الفتن وسفكوا الدماء باسم الدين ، والدين منهم براء ، وهؤلاء الذين وصموا الدين بتهمة التعصب وعدم التسامح ، والتخلف ، والرجعية .. ، ووصموا المسلمين بتهمة التشدد والتزمت والإرهاب ، هؤلاء المرضى النفسيون ، الجهلة بحقائق الدين البعيدون عن وسطية الإسلام التي هي أهم سمة من سمات الإسلام والمسلمين .

آراء علماء النفس والاجتماع في المتطرفين .

وقبل أن نتحدث عن أهم المآخذ التي تؤخذ على هؤلاء النصيين الحرفيين ، والسلفيين الجهاديين نتحدث أولاً عن الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى عدم استخدام العقل الصريح في فهم النص الصحيح ، ودفعتهم إلى استخدام القوة في فرض آرائهم السقيمة وسوف نستعين بأهل التخصص في تحليل شخصية المتطرف .

يقول د. سمير نعيم أحمد (٢) " إذا حللنا شخصية المتطرف وفقاً للدراسات النفسية العالمية والمحلية التي أجريت على الشخصية المتطرفة فإننا نجد أنهم يعانون من اضطراب في المستويات النفسية الثلاثة : العقلية أو المعرفية ، الانفعالية ، والسلوكية .

١- على مستوى العقل

تتسم شخصية هؤلاء المتطرفين بأسلوب مغلق جامد للتفكير أو بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقداتها أو أفكارها أو معتقدات جماعتها ، وعدم القدرة على التأمل والتفكير ، وإعمال العقل بطريقة مبدعة ، وبناءة ، وتعطل ملكاتها النقدية ، ويميل مثل هذا الشخص دائما إلى معتقده على أنه صادق صدقاً مطلقاً وأبديّاً وأنه يصلح لكل زمان ومكان وبالتالي لا مجال لمناقشته ولا للبحث عن أدلة تؤكده أو تنفيه ويميل إلى إدانة كل اختلاف معه في الرأي .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المدارس السلفية الرجوع إلى كتابنا " المدارس السلفية وجدلية العقل والنقل والمصلحة " دار زهور المعرفة والبركة .

(٢) أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

٢- على مستوى الانفعالي

يتسم المتطرف بشدة الانفعال والتطرف فيه فالكراهية مطلقة وعنيفة للمخالف أو المعارض للرأي والحب الذي يصل إلى التقديس والطاعة العمياء لرموز هذا الرأي. والغضب يتفجر عاتياً عند أقل استثارة .

٣- على المستوى السلوكي

تتسم هذه الشخصية بالاندفاعية والعدوانية والميل إلى العنف .

فالمتطرف الديني شديد التعصب لدينه ولا يعترف بحرية العقيدة بل وحتى لا يقبل أو يتسامح مع أي تفسير لنصوص دينه سوى تفسيره ، وهو مهيأ دائماً الاستثارة واللجوء إلى العنف .

إذا كانت أنظمة الشخصية التي يفتش فيها عالم النفس عن الخلل المؤدى إلى التطرف أو التسلط هي : العقل، الانفعال ، والسلوك ، فإن أنظمة المجتمع الأساسية التي يتناولها عالم الاجتماع بالتحليل هي : الاقتصاد ، والسياسة ، والتربية ، والأسرة ، والثقافة بمؤسساتها المختلفة .

١- الأزمة الاقتصادية والتطرف

تؤكد الأدلة التاريخية والمعاصرة على ارتباط ظهور وتنامي التطرف بأشكاله المختلفة وأبرزها جماعات العنف الدينية بالأزمة الاقتصادية .

وتدل الشواهد التاريخية أيضاً على الأزمة الاقتصادية تصيب أول ما تصيب الطبقات الدنيا التي تعانى بشدة من تدهور ظروفها المعيشة بفعل انتشار البطالة وتدهور الخدمات كما أن هناك فئات تثرى وتستفيد من الأزمة ومضاعفاتها وتسلك سلوكا استفزازية بالنسبة للفقراء بثرائها وإسرافها ، ويرتبط التطرف في الفقر بالتطرف في الفكر ويولد الإحباط عدوانا وعنفا وتخلق قسوة الواقع أوهام الخلاص.

وتدل الدراسات الاجتماعية التي أجريت على أعضاء الجماعات الدينية المتطرفة على أن الغالبية العظمى منهم من الشباب ومن الطبقات الدنيا والمتوسطة ومن المناطق الأكثر حرماناً مثل الريف وبخاصة الوجه القبلي والأحياء الشعبية الفقيرة الذين يعانون من البطالة أو انخفاض الدخل والعجز عن توفير متطلبات الحياة

الضرورة مثل : السكن ، وكذلك من العجز عن إيجاد حلول لمشكلاتها كالهجرة أو الوساطة أو رفضهم الانغماس في الأنشطة مضادة لقيمهم الدينية كالفساد والرشوة أو الإدمان وكلها صور أخرى للتطرف بمعنى أو آخر ...

وترتب على زيادة معدل البطالة والتضخم وغلاء الأسعار وبالتالي حدة التفاوت الطبقي خاصة مع ظهور فئات طفيلية أثريت وانعكست أثار هذا الخلل الخطير على الشباب بخاصة في الطبقات الدنيا ونشأت تربة صالحة للتطرف تزود جماعات العنف السياسي الديني التي تهدد استقرار ومستقبل الأمة بأعضاء يعانون الإحباط وافتقار الشعور بالأمن والأمل في المستقبل فيقعون بسهولة فريسة الانقياد لأوهام الخلاص .

٢- الفراغ السياسي والتطرف

الملاحظ أنه ليس هناك حزب واحد في مصر حتى الآن (١) استطاع أن يحشد الشباب وراء هدف قومي أو من أجل بناء مستقبل واعد كما أن كافة التنظيمات الشعبية تحولت إلى تنظيمات رسمية أو شبه رسمية كالاتحادات والنقابات وأصبحت العضوية فيها شكلية وهنا تأتى التنظيمات السرية أو الجماعات المتطرفة لتملأ الفراغ وحتى لتتغلغل في التنظيمات الرسمية القائمة كالاتحادات الطلابية والنقابات المهنية وتهيئ للشباب فرصة الشعور بالانتماء وتحقيق الذات والقيام بدور ما لتحقيق هدف أو أهداف مرسومة خاصة وأن هذه الجماعات تقوم بدور فعال في مساعدة أعضائها على حل مشكلاتهم الحياتية أو على الأقل التخفيف من حدتها .

إن شبابنا يفتقد أي فرصة للممارسة السياسية بمعناها الواسع التي تنمى لديه القدرة على إبداء الرأي والحوار حول مسائل عامة أو اجتماعية وتعوده على تقبل الرأي الآخر بعد تحليله ونقده والتنازل عن رأيه إذا اقتنع بغيره وأسلوب الاعتراض المتحضر على الرأي وأدب الحديث .

وهكذا يكون دور الشباب هو دور المشاهد أو المتفرج ليس دور المشارك حتى في الندوات أو اللقاءات السياسية يدعى الشباب لكي يستمع إلى محاضرات الكبار

---

(١) كان هذا قبل ثورة ٢٥ يناير أما بعدها فقد انخرط كثير من الناس في العمل السياسي ، ووصل عدد الأحزاب القانونية إلى نحو سبعين حزباً غير التي ما زالت تحت التأسيس .

أو يلقن فكرهم وليصفق له ! والمؤسف أن الشباب في الغالب لا يتلقن الفكر ذاته ولكن يتلقن أسلوب هذا الفكر : التطرف والتسلط ويصبح هذا الأسلوب الفكري الجامد مسيطراً عليه في مختلف مجالات حياته ويسهل اجتذابه للتطرف الديني .

٣- أزمة التعليم والتطرف :

أفاض الكثيرون من المسئولين والمفكرين في الحديث عن أزمة نظامنا التعليمي التي تتمثل في أنه نظام تلقيني ، يعتمد بصفة أساسية على حشو ذهن الطالب خلال مختلف مراحل الدراسة بمعلومات عليه أن يستظهرها دون إعمال للعقل ودون تحليل أو نقد وهو لا يشجع على تحصيل المعرفة بنفسه من خلال الاحتكاك بالواقع والاطلاع في المكتبات وإجراء البحوث الميدانية ، والتلقين مرتبط دائما بالسلطوية، أي تقبل كل ما تمليه سلطة المعلم وبذلك يصبح من السهل جداً على مثل هذا التلميذ أن يتقبل كل ما تمليه سلطة أمير الجماعة دون تحليل أو نقد أو معارضة ولو لم تكن هناك جماعات دينية وكان هناك بديل عنها كجماعات فاشية لانخرط فيها خريجو هذا النظام التعليمي ، ففي كل هذه الجماعات يتم تلقين الفكر وتقبله دون تحليل ويسهل الانقياد بفعل إبطال عمل العقل . وقد يكون ذلك تفسيرا لانخراط بعض حملة الشهادات العليا في مثل هذه التنظيمات . ومما يدعم هذا الرأي أيضاً تغلغل التطرف في التنظيمات الطلابية بالكليات العملية كالطب والهندسة أكثر منه في الكليات النظرية كالآداب والتجارة ذلك أن هذه الكليات النظرية تتيح قدراً أكبر نسبيا لطلابها لإعمال الفكر فهو متعرض فيها لنظريات وآراء مختلفة ينقد فيها كل اتجاه الآخر على عكس الكليات العملية التي لم تدخلها العلوم الإنسانية بعد .

وتتمثل أزمة النظام التعليمي أيضاً في نقطتين ترتبطان بتهيئة لظروف التطرف ، الأولى عجزه حتى الآن عن محو أمية ما يزيد على نصف السكان من جهة ، والثانية أنه بدلاً من تزويده لسوق العمالة بالتخصصات اللازمة يزود البطالة بأعداد متزايدة نظراً لضعف الارتباط بينه وبين احتياجات المجتمع .

٤- تقصير المؤسسات الثقافية والتطرف

لقد قصرت المؤسسات الثقافية عن أداء دورها الذي أنشئت من أجله .. وتحولت الثقافة من خدمة جماهير تدعمها الدولة إلى سلعة استثمارية تهتم بالربح وبالمظهر

أكثر من الفائدة والمضمون . وفي مجال المسرح انحسرت موجة المسارح الشعبية والجماهيرية وتقلص الدور الحكومي الذي كان يزود الشباب بغذاء عقلي وروحي ويوسع مداركهم بما يعرضه من مسرحيات واقية وبأسعار مقبولة وتحول النشاط المسرحي إلى تقديم الفن هابط ومبتذل . وبالتالي لم تعد الثقافة المسرحية متاحة للقطاع الأعظم من الشباب إما حرماناً أو إحجاماً واحتقاراً ، وينطبق نفس الشيء على السينما وملأ الفكر المتطرف الفراغ الثقافي مثلما ملأت الجماعات المتطرفة الفراغ السياسي أما وسائل الإعلام وخاصة المرئية فهي تعرض لجماهير الشباب صوراً متنوعة وبكثافة عالية للإنفاق البذخي وللمظاهر الاستهلاكية الترفيه فتزيد من حالة الإحباط لديهم كما أنها تعرض نماذج سلوكية وثقافة غريبة أو مبتذلة الأمر الذي يثير نقمة واشمئزاز الكثير من الشبان أو يمثل غواية لهم للانحراف قد يكون التطرف الديني وسيلة دفاعية للاحتماء به منها .

هذا عن المضمون ، أما من حيث الأسلوب فإن وسائل الإعلام تكرس الجمود العقلي والتسلطية وإبطال عمل العقل الناقد فهي تعرض في الغالب الرأي الواحد حتى لو اشترك في عرضه ومناقشته عشرات الأفراد دون أن تتيح فرصة للرأي الآخر وللحوار والنقاش .الأمر الذي يكرس أيضاً القابلية للإيحاء والتلقين وهي خاصية العقلية التي تعتمد عليها الجماعات المتطرفة لاجتذاب أعضائها .

أما الثقافة الدينية التي يتعرض لها أبناؤنا فإنها في حاجة شديدة للمراجعة ويكفي أن نستمع إلى خطبة الجمعة بمساجد الجمهورية المختلفة والتي يلقيها في الغالب أشخاص غير مؤهلين لكي نتعرف على كيفية تكريسها للجمود العقائدي وعدم تمثل الأبناء لتعاليم الدين الإسلامي السمحة ، كما أن مقررات الدين في المدارس في حاجة ملحة للمراجعة .

٥- الأزمة الأسرية والتطرف

تصب كل نتائج الأنظمة السابقة الحديث عنها في الأسرة مهد التنشئة الاجتماعية فالأزمات التي عانتها الأسرة بفعل التضخم والغلاء والبطالة ومشكلات الحياة اليومية القاسية من مواصلات وإسكان وغذاء وملبس وتعليم وصحة وتلوث وضوضاء وفوضى واضطراب وحصار دعائي لسلع وخدمات تثير التطلعات دون إمكانية التحقيق أو الإشباع ، كل ذلك يضع رب الأسرة أو ربتها في دوامة هائلة

لا تسمح بالتنشئة السليمة والصحية للأبناء فضلاً عن اضطراره للتسلط في مواجهة الأبناء ومن المعروف أن الأزمة الاقتصادية قد دفعت بأعداد هائلة من أرباب الأسر إلى الهجرة طلبا للرزق . وقد بينت الدراسات الاجتماعية أن الهجرة كانت لها آثار خطيرة على الأسرة ، حيث غياب الأب أو الأم أو كليهما عن الأبناء وما ينجم عن ذلك من انحراف يلجأ البعض للاحتماء منها بالتطرف كما أن هناك أباء يعودون من بعض البلاد وقد تشبعوا هم أنفسهم باتجاهات دينية كانت غريبة عنهم وعن المجتمع المصري هذه العوامل تدفع بالأبناء إلى الذين تغيب عنهم آباؤهم إما إلى الانحراف أو الانتماء إلى جماعات متطرفة عوضا عن الانتماء الأسرى والتماسك الذي يسود الجماعات المتطرفة بديلاً للتماسك المفقود في الأسرة ." (١)

وتضيف د. سهير لطفي إلى تلك الأسباب " الظروف الاجتماعية والسياسية التي مرت بها مصر في تاريخها المعاصر كالصدام – سلسلة الاعتقال التي قام بها الرئيس عبد الناصر للجماعات الدينية – سنة ١٩٥٤م ثم تكرر ذلك سنة ١٩٦٥م وتفسير هزيمة ١٩٦٧م ببعد المجتمع عن الدين (٢) وتشجيع سلطة السبعينات الفكر والحركة الإسلامية في مواجهة التيارات العلمانية السياسية والاجتماعية الأخرى .

والأزمات الاقتصادية التي يعانى منها المجتمع المصري منذ هزيمة ١٩٦٧م وفشل الاتجاهات الاشتراكية والليبرالية في معالجة المشاكل الاقتصادية ، وازدياد معدل التغيير في وسائل الإنتاج وأسلوب الحياة كل ذلك جعل من الدين الإسلامي المأوى الأخير للشباب الذي يبحث عن حد أدنى من الاستقرار والثبات هذا إلى جانب سكوت بعض رجال الدين وعدم إبداء وجهة نظرهم في التيارات الإسلامية وعدم إجراء حوار مع الجماعات الإسلامية الشبابية . وهذا عكس ما كان معروفاً عن دور الأزهر التاريخي إذ يبدى رأيه بوضوح في القضايا الوطنية .

خمسة وعشرون مأخذاً على المتنطعين من دعاة الإسلام

ويمكن أن نلخص أهم المآخذ التي أخذت على النصيين الحرفيين ، والظاهريين البدو ، والسلفية الجهادية ، وكل المتنطعين في فهم الدين بعامة في الآتي راجين من الله تعالى أن يهدينا وإياهم سواء السبيل :

---

(١) من مقال د. سمير نعيم أحمد منشور في كتاب "جذور الإرهاب " الهيئة المصرية العامة للكتاب .
(٢) لمعرفة المزيد من الأسباب التي أدت إلى ظهور السلفية الجهادية في مصر الرجوع إلى كتاب "المدارس السلفية " للمؤلف فصل " السلفية الجهادية " .

أولاً: المذهبية الدينية المفرقة للجماعة

ومما يؤخذ على هؤلاء المتنطعين المذهبية الدينية ذات القالب الجامد الذي لا يقبل الاختلاف ولا التنوع خارجه من مذاهب أخرى أو آراء أخرى مهما كان القائل بها ، ولا عدد المؤمنين بها بل لا يقبل الاختلاف والتنوع داخل المذهب نفسه فهم يقصرون الفهم الصحيح للدين على جماعة بعينها ويحرمون غيرهم حق الاختلاف والزعم أنهم هم الفرقة الناجية ، مما ولد الانقسامات فيها ، وزاد الهوة بينها .

مع أنه من المقرر أنه " لا يجوز حمل الناس على الرأي الاجتهادي ولا يجوز لعالم مجتهد، ولا لإمام عام أن يحمل الناس على رأيه واجتهاده .

وصنف رجل كتاباً في الاختلاف، فقال أحمد: لا تسمِّه كتاب الاختلاف، ولكن سمه كتاب السعة. ولهذا كان بعض العلماء يقول: إجماعهم حجة قاطعة ، واختلافهم رحمة واسعة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا، ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة . "(١)

كما أنهم يطلقون على أنفسهم مسميات تمييزاً عن بقية المسلمين : ومن تلك الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم : " جماعة جند أنصار الإسلام" و " جماعة شباب المجاهدين " و " جماعة التكفير والهجرة " و" الجماعة الإسلامية " و " جماعة الجهاد " و " تنظيم القاعدة " " الناجون من النار" .. مع أن الله تعالى يقول{ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ }(الحج : ٧٨) يزكون بهذه الأسماء أنفسهم مع أن الله تعالى نهي عن تزكية الإنسان نفسه { فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (النجم : ٣٢) .

ويحذرنا الله تعالى من التشيع والتحزب وفرح كل حزب بما لديه ، واعتقاده أنه هو الذي على صواب ، وبقية الأحزاب والشيع على باطل .

{ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } (الروم : ٣٠ – ٣١) .

---

(١) ابن تيمية " شرح العمدة في الفقه " ج ٤ ص ٥٦٧

ثانياً : الانغلاق على الذات :

ومن عيوب النصيين الحرفيين الانغلاق على الذات وعدم الانفتاح على المجتمع وعلى الآخرين "وجمود الشخص على فهمه جموداً لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين وموازنة ما عنده وما عندهم والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً وأرجح ميزاناً " (١)

مع أن الباحث عن الحق يجب أن يتهم رأيه وإن كان متأكداً من أنه صواب وأن يضع في الاحتمال أن الحق يمكن أن يكون مع مخالفه، وبهذا الشعور يسهل عليه تقبل الحق عندما يظهر، ويلوح له .

ثالثاً : عدم التمييز بين مخالفة الرأي ومخالفة الدين

ومن عوار تفكير بعض النصيين الحرفيين أنهم يعتبرون أن كل مخالف لرأيهم مخالف للدين أو أنه كافر مهدر الدم مستباح المال وهذه بدعة ما قال بهذا سلف أو خلف غيرهم فلقد تعايشت المذاهب الإسلامية جنباً إلى جنب فما اتهم واحد من الأئمة غيره بالفسوق فضلاً على الخروج على الدين أما هؤلاء فقد دأبوا على " اتهام الناس بالخروج من الإسلام أو عدم الدخول فيه أصلاً كما هي دعوى بعضهم وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد وسائر الأمة في واد آخر وهذا ما وقع فيه الخوارج في صدر الإسلام والذين كانوا من أشد الناس تمسكاً بالشعائر التعبدية ، صياماً وقياماً وتلاوة للقرآن ولكنهم أتوا من حيث فساد الفكر لا فساد الضمير زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ومن ثم وصفهم النبي ﷺ بقوله " يحقر أحدكم صلاته إلى صلاته وقيامه إلى قيامهم وقراءته إلى قراءتهم ومع هذا قال عنهم : " يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم " وذكر علامتهم المميزة بأنهم " يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان " (٢)

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٩ .
(٢) نفسه ص ٥٤ .

ولعمري إن هذا الوصف يكاد ينطبق على هؤلاء الصنف من النصبيين الحرفيين فحروبهم موجهة لإخوانهم من المسلمين المخالفين لهم في الرأي . فكم من الأبرياء تلطخت أيديهم بدمائهم !

أما أعداء الإسلام والمسلمين المحتلين أرضه من اليهود عبدة الحياة المادية والغرب المسيحي عبدة الصليب فلم يصب منهم واحد من هؤلاء بأذى .

قال الشاعر عمران بن قحطان في مثل هؤلاء :

أسدٌ على وفي الحروبِ نعامةٌ * ربداءُ تجفلُ من صفيرِ الصافر

وقديماً أسلافهم من الخوارج " قابلوا مسلماً ونصرانيّاً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا احفظوا ذمة نبيكم ! " (١)

لقد حكمت جماعات السلفية الجهادية بالكفر على كل من ارتكب معصية وأصر عليها ، ولم يتب منها ، فهم يكفرون الحكام ؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله . ويكفرون المحكومين ؛ لأنهم رضوا بهم ، وتابعوهم على الحكم بغير ما أنزل الله .

وهم يكفرون علماء الدين وغيرهم لأنهم لم يكفروا الحكام والمحكومين ، ومن لم يكفر الكافر فهو كافر .

وهم يكفرون كل من عرضوا عليه فكرهم ، فلم يقبله ولم يدخل فيما دخلوا فيه .. لهذا حذر النبي من الاتهام بالكفر فشدد التحذير ففي الحديث الصحيح :

" من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " (متفق عليه) .

فما لم يكن الآخر كافراً بيقين فسترد التهمة على من قالها ويبوء بها وفي هذا خطر وقد صح من حديث أسامة بن زيد أن من قال " لا إله إلا الله فقد دخل في الإسلام وعصمت دمه وماله وإن قالها خوفاً أو تعوذاً من السيف فحسابه على الله ، ولنا الظاهر ولهذا أنكر النبي غاية الإنكار على أسامة حين قتل الرجل في المعركة بعد أن نطق بالشهادة وقال : قتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟!! قال أسامة : إنما قالها تعوذاً من السيف ؟ قال : هلا شققت قلبه ؟ ما تصنع بـ لا إله إلا الله ؟!! قال أسامة : فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ فقط ..

---

(١) د. مصطفي الشكعة " إسلام بلا مذاهب " ص ١٤٨

وكل الشبهات التي استند إليها الغلاة في التكفير مردودة بالمحكمات البينات من كتاب الله وسنة رسوله وهو فكر فرغت منه الأمة منذ قرون، فجاء هؤلاء يجددونه، وهيهات .. "[1]

رابعاً: الجمود وعدم فقه الواقع وتغيير الفتوى

إن أحد هؤلاء السلفيين النصيين لا يعلم من العلوم الحديثة إلا اسمها ، ولا يعلم عن التقنيات الجديدة إلا شكلها ، ولا يعلم من الحضارة الحديثة إلا عوارها ، ومع ذلك يفتى الناس على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم وثقافتهم وأحوالهم بفتوى واحدة فيما اختلف فيه العلماء والحقيقة أن العيب ليس عيبهم في هذه المرة إنما العيب عيب من استفتى مَن يختلف عنه وعن بيئته وحضارته وعاداته وتقاليده وترك علماء بلده وهم أقدر الناس على إفتائه بما يتناسب وظروف بيئته .

يقول ابن قيم الجوزية " مهما تجدد في العرف فاعتبره ومهما سقط فألغه ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا تجره على عرف بلدك وسله عن عرف بلده فأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك قالوا فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين " (٢)

إن الإمام الشافعي غيَّر مذهبه في مدة وجيزة ، فكان له مذهب جديد ، ومذهب قديم ، وأن أصحاب أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثلث المذهب ؛ لاختلاف عصرهم عن عصره ، وقالوا : لو رأى صاحبنا ما رأينا ؛ لقال بمثل ما قلنا أو أكثر ، والإمام أحمد تُروى عنه في المسألة الواحدة روايات قد تبلغ سبعاً ، أو أكثر وما ذلك إلا لاختلاف الأحوال والملابسات ، وتغير الظروف والأوضاع في غالب الأحيان . [3]

أما المتنطعون فلا يكتفون بنقل فتاوى مضى عليها ألف عام أو أكثر قيلت في زمان ومكان وظروف تختلف تماماً عن الواقع الذي يريدون أن ينزلوا إليه الفتوى!

---

(١) يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية " ص٥٥

(٢) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨

(٣) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " مرجع سابق ص ٧ .

بل يعممون الفتوى على كل الناس على اختلاف عوائدهم وأعرافهم فهم يأبون إلا التقليد وإيقاع الناس في الحرج " وقد تجلى ذلك في البحث والتنقيب في حياة السلف وأقوال العلماء الأقدمين عن مرجع لأي أمر جديد، والاستغراق في قياسات جزئية لا تلبى حاجات الإسلام في العصر الحاضر ، ولا تجيب عن الأسئلة الكبيرة والخطيرة التي تواجه المجتمعات الإسلامية اليوم. والنظر بريبة إلى كل اجتهاد جديد لا يجد له مستنداً أو سابقة في حياة السلف .

وربما يجد المرء جذوراً تاريخية لهذا المنزع في تورع بعض العلماء الأقدمين مثل الإمام أحمد والإمام أبى داود من القول بالرأي ، وإيثارهم الأخذ بالآثار الضعيفة على الرأي والاجتهاد . وهو نوع من عدم الاعتراف ضمناً بحدود النص كان ممكناً في عصرهم الذي لا يختلف كثيرا عن عصور الإسلام الأولى، لكنه غير ممكن في عصرنا الحالي، نظراً للتغيرات العميقة في مسار الحياة وبنية المجتمعات، مما يجعل الاعتراف بأن "النصوص متناهية والحوادث غير متناهية" كما يقول الأصوليون أمراً لا محيد عنه "[1]

وهم بذلك يغلقون باب الاجتهاد أمام أهل الاجتهاد المعاصرين من علماء الأمة بل ألغاه بعضهم أمام العلماء منذ القرن الرابع الهجري واكتفوا بما صنفه المجتهدون الأوائل مع أن الاجتهاد سمة مميزة للإسلام قررها القرآن وأكد عليها النبي ومارسها النبي والصحابة والتابعين والعلماء الثقاة في كل العصور . فالمجتهدون هم الذين يجددون لهذا الدين شبابه ولولاهم لما كان هذا الدين صالحاً لكل زمان ومكان وفي ذلك يقول تعالى :

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } (التوبة : ١٢٢)

ويقول النبي : " "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " حديث صحيح (رواه أبو داود)

وأنّ رَسُولَ الله ﷺ لَمّا أرَادَ أنْ يَبْعَثَ مُعَاذاً إلَى الْيَمَنِ قالَ : " كَيْفَ تَقْضِي إذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟ قالَ أقْضِي بِكِتَابِ الله. قالَ فَإنْ لَمْ تَجِدْ في كِتَابِ الله ؟ قالَ فَبِسُنّةِ

(١) محمد بن المختار الشنقيطي " مخاض الفكر السلفي " .

رَسُولِ الله ﷺ قالَ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ في سُنّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَلاَ فـي كتَـابِ الله ؟ قـالَ أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي وَلاَ آلو ، فَضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ صَدْرَهُ ، فَقَالَ الْحَمْدُ لله الـذي وَفّـقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ الله". (رواه أبو داود)

فهؤلاء المقلدون الجامدون لا يجب أن يتصدوا لإفتاء الناس وفـي ذلـك يقـول الشوكاني في كتابه [القول المفيد] " فعندي أن المفتي المقلد لا يحل له أن يفتي من يسأله عن حكم الله أو حكم رسوله أو عن الحق أو عن الثابت في الشريعة أو عمـا يحل له أو يحرم عليه لأن المقلد لا يدري بواحد من هذه الأمور على التحقيق بل لا يعرفها إلا المجتهد هكذا إن سأله السائل سؤالا مطلقا من غير أن يقيده بأحد الأمور المتقدمة فلا يحل للمقلد أن يفتيه بشيء من ذلك لأن السؤال المطلق ينـصرف إلـى الشريعة المطهرة لا إلى قول قائل أو رأي صاحب رأي " .

وللأسف الشديد إن كثيراً ممن يشغلون المناصب العليا في الفتوى في بلادهـم إذا سئلوا في فتوى لا يحاولون الاجتهاد من أنفسهم .. بل يفتون ببعض الفتاوى القديمة مهما كانت هذه الفتاوى تتعارض مع روح العصر وفي ذلك كسل عن الاجتهـاد أو الخوف من المسئولية وكل ما يفعلونه أن يقولوا لنا هذا رأى الإمام أحمد وهذا رأى ابن تيمية ، وهكذا فهذا المقلد لا يعتبر مفتيا بالمعنى الصحيح بقد ما هو ناقـل آراء وخير له أن يترك مهنـة الإفتاء للعلماء المجتهدين وهم موجودون بفضل الله فـي كل زمان وفي ذلك يقول الإمام ابن قيم الجـوزية في كتابه إعلام الموقعين " مـن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عـرفهم وعوائـدهم وأزمنـتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما فـي كتاب من كتب الطب على أبدانهم بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم "(١)

خامساً : عدم إدامة النظر في كتاب الله

ومما أفسـد فهم بعض السلفيين للدين إعراضهم عن القـرآن الكريم لا يـديمون فيه النظر ولا يتشبعون بروحه ولا يقتفون منهجه وتعظيم ما عظم وتهوين ما هون،

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨ .

فإذا القرآن تحدث عن ألف آية عن التفكير والعلم الشامل ونعى على مقلدي أسلافهم تقليدهم الأعمى . فإن السلفي النصي الحرفي يحقر من شأن العقل ، ولا يأخذ بالرأي ويغلق باب الاجتهاد ، ويقصر العلم على ترديد ما قاله بعض السلف . مع أن القرآن الكريم هو " حجة الله على الناس وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتباعه لأنه من عند الله وأنه نقل إليهم بطريق قطعي لا ريب في صحته "[1] ، وأن الله أمر الناس بتدبر القرآن { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد : ٢٤) وحث على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس .[2]

ومن أعجب ما يدَّعوه – بهتاناً وزوراً – أن السنة تقضي على القرآن !!

أرأيتم جهلاً أكبر من هذا ؟! هل حديث الآحاد الذي لا يفيد إلا الظن العلمي مقدم على كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، ولا يأخذ من القرآن إلا ما وافقه ؟! هل هذا القول يقوله مسلم موحد بالله ؟ فما بالك إذا صدر من وعاظ يتبعهم الملايين من المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفي هؤلاء النصيين الحرفيين يقول الشيخ محمد الغزالي " قد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن كثيري النظر في الأحاديث يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة .." [3]

سادساً : عدم التزام الأمانة العلمية في النقل وعرض الآراء

بعض السلفيين ينقلون ما يوافق هواهم ، ويغضون الطرف عن أدلة من خالفهم ، بدلاً من عرض آراء العلماء بموضوعية وحيادية ثم مناقشتها مناقشة علمية لا مذهبية ، وترك الناس تختار ما تشاء من آراء العلماء المجتهدين دون الحجر على رأى . أما السلفي النصي الحرفي فينتقى من كتب التراث ما يوافق هواه فإن كان

---

(١) علم أصول الفقه " عبد الوهاب خلاف ص ٢٤

(٢) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠

(٣) محمد الغزالي " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " ص ٢٠

هواه مع ظاهر بعض الأحاديث ، صحيحة أو ضعيفة ، يقول لك لا اجتهاد مع نص ويرد بهذا أقوال الفقهاء الذين تأولوا هذه الأحاديث في ضوء القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وفهم الصحابة ، وفي ضوء مقاصد الشرع ، وفقه الواقع ، وهي مقولة حق أرادوا بها باطلاً فحقاً لا اجتهاد مع نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، أما غير ذلك من النصوص فقطعاً فيها اجتهاد من أهل الاجتهاد ممن تحققت فيهم شروطه .

أما إن كانت الأحاديث صريحة في مخالفة ما ذهبوا إليه فإنهم لا يأخذون بظاهر الأحاديث وإنما يقولون لك لا حديث بغير فقه ويتخيرون من أقوال الصحابة أو العلماء ما يؤيد رأيهم ناسين أو متناسين ملابسات الفتوى ، والعصر الذي قيلت فيه، وطبيعة الناس الذين أفتى لهم العلماء بهذه الفتوى كما أنهم لا يذكرون أقوال من خالف رأيهم من سلف أو خلف ... دليل ذلك اقرأ أو اسمع كلامهم في الغناء ، اللحية ، النقاب ، معاملة غير المسلمين ، وتنظيم الأسرة ، الأحكام المتعلقة بالمرأة، التصوير ، إسبال الإزار ، القيمة النقدية لزكاة الفطر ، ...

بل إن بعضهم يلجأ إلى التدليس على الناس فإذا كان الحديث ضعيفاً في مسألة من المسائل بَحَثَ عمن يصححه من علماء الحديث فإن لم يجد فإنه يكتفي بذكر راوي الحديث دون بيان لدرجة الحديث ومدى صحته ، والناس ينطلي عليها هذا التدليس فلا دراية لهم بعلم الحديث ولا يعرفون إلا إن الشيخ مادام قد قال : قال رسول الله ﷺ فقد صدق وما عليهم إلا السمع والطاعة ووجوب العمل . وإذا كان العلماء قد أجازوا رواية الأحاديث الضعيفة إنما أجازوا روايتها في فضائل الأعمال لا في الأحكام وأشهر مثال على ذلك الأحاديث المحرمة للغناء فإن العلماء مثل : ابن حزم وابن العربي وأبو حامد الغزالي وغيرهم كثير يجمعون على عدم صحة هذه الأحاديث بعكس الأحاديث الدالة على إباحته فهي كثيرة وصحيحة ومتفق عليها إلا أن هؤلاء المدلسين غلاظ القلوب لا فتئون يذكرون الضعيف من الأحاديث ولا يذكرون الصحيح منها . أليس ذلك تدليساً وخروجاً على الروح العلمية ؟ والعجيب أن هذا الموضوع بالذات هو أكثر المواضيع التي يتحدثون فيها ويفردونها بمؤلفات خاصة !! لماذا هذا الإصرار العجيب على هذا الموضوع بالذات دون غيره كأنه من الأمور العقدية التي لا يصح إيمان إلا بها !! وكلها تصدر من بلد بعينه وتوزع بالمجان على سائر الدول التي تختلف في طبيعة الحياة

والتفكير والعلم والعادات والتقاليد والحضارة عن هذه البلد وعن علمائها فإذا كان علماء هذه البلاد لا يسمعون الغناء فهذا حقهم فلم يحرمونه على غيرهم في المناسبات السعيدة والأعياد ترويحاً للقلوب – بالشروط التي بيناها في غير هذا الموضع – كما كان يفعل هذا بعض صحابة رسول الله ﷺ جاء في الحديث الصحيح عن عامر بن سعد قال : " دخلت على قرظه بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار يغنين فقلت أنتما صاحبا رسول الله ﷺ ومن أهل بدر يفعل هذا عندكم فقال اجلس إن شئت فاسمع معنا وإن شئت اذهب قد رخص لنا في اللهو عند العرس " (رواه النسائي والحاكم وصححه الألباني)

والذي دعاهم إلى تحريم الغناء جملة وتفصيلاً تقليدهم لبعض السلف المحرمين للغناء في عصرهم ، وفي ذلك يقول ابن القيم : " لا يجوز الفتوى بالتقليد لأنه ليس بعلم والفتوى بغير علم حرام ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم " (1)

سابعاً : الخلط بين المقدس وغير المقدس

وبعض السلفيين المتنطعين المقلدين يخلطون بين ما هو مقدس – وهو القرآن الكريم وصحيح السنة – وما هو اجتهاد بشرى ، فيخلطون مثلاً بين القرآن الكريم وتفسير بعض علماء السلف له فكلاهما مقدس لا يجوز الخروج عليه . فإذا قال الله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } (لقمان : ٦) فيكون مراد الله تعالى بلهو الحديث هو " الغناء " كما قال بعض السلف ومن قال بغير ذلك فقد خالف كتاب الله ! وبهذا أصبح بعض كلام السلف هنا مقدساً كالقرآن بالطبع إذا وافق هوى السلفي النصي الحرفي إما إذا خالف هواه في موضع آخر كتفسير ابن عباس وغيره من صحابة رسول الله ﷺ للمستثنى في قوله تعالى {وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا } (النور : ٣١) بالوجه والكفين لم يلتفتوا إليه بل يجعلون رأى ابن مسعود رضى الله عنه هو الرأي المقدس في هذه القضية وهكذا أصبح المقدس من آراء السلف ما يقدسونه هم حسب هواهم .

---

(1) ابن قيم الجوزية " إعلام الموقعين " ج ١ ص ٥١

وبعضهم يخلط بين الإسلام وبعض أقوال السلف فيجعلونهما سواء بسواء وهم بهذا يكونون قد جاروا على الاثنين معاً جاروا على القرآن الكريم والسنة المطهرة كما جاروا على السلف الصالح ؛ فالقرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو صالح لكل زمان ومكان يفهم منه علماء كل عصر بما يفتح الله عليهم به متسلحين بعلوم الدين وعلوم اللغة وعلوم العصر ، أما السلف الصالح وغيرهم من علمائنا الأفذاذ ما ادعى واحد منهم عصمة لرأيه ولا ادعى أن رأيه صالح لكل زمان ومكان ، وأن رأيه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما كان منهجهم ما عبر عنه الإمام الشافعي بقوله" رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب " وقول الإمام مالك " كل يؤخذ منه و يرد إلا صاحب هذا المقام – يقصد النبي ﷺ – . وقد روى أبو نعيم في "حلية الأولياء" عن مالك أنه قال: شاوَرَنى هارون الرشيد في أن يعلّق الموطأ على الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه، فقلت : لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرقوا في البلدان، وكلٌ مصيب " .

ولو كان للقرآن تفسير واحد لا يصح غيره لفسره النبي ﷺ إنما النبي ترك هذا الأمر لعلماء المسلمين الذين يجددون للإسلام شبابه { إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها } (رواه أبو داود والحاكم) معنى هذا أنه يجب فهم الدين بالمفهوم المعاصر له وعدم الاكتفاء ببعض أقوال السلف دون الأخذ بمنهجهم في فهم الدين .

وإذا كانت أقوال السلف مقدسة فلماذا تعددت التفاسير ولم يكتف بأقدمها ؟ ولماذا فسر ابن كثير القرآن بعد ابن عباس والطبري والقرطبي وغيرهم من أعلام التفاسير ؟ ولماذا يُحْرَم مفسرو عصر من التفسير أو شرح الأحاديث أو الفقه ؟!

لقد " خلط بعض السلفيين بين الوحي والتاريخ في المرجعية، جراء نقص في الوعي بالتاريخ لا يميز بين صورته ومعناه، وتقصير في دراسة حياة السلف دراسة استقصائية تلم بكل جوانبها المضيئة والقاتمة ، ولا تقف عند سرد المناقب فقط. وذلك هو داء التجسيد تجسيد المبادئ في أشخاص، مهما يكونوا عظماء فهم غير معصومين، وفي وسائل مهما تكن ناجحة ، فهي محدودة بحدود الزمان والمكان. والذي يتأمل نصوص الشرع ومصائر الأمم يدرك أن الخلط بين المبادئ

والأشخاص ، أو المبادئ والوسائل ، من أسوأ الأدواء الفكرية والعملية . لقد أمرنا النبي ﷺ باتباع سنته بإطلاق لأنه معصوم: "عليكم بسنتي"، ثم أمر باتباع سنة الخلفاء من بعده، لكنه قيدها بالرشد "وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي". وفي ذلك درس ثمين في التمييز بين الشخص والمبدأ حتى ولو كان ذلك الشخص أحد الخلفاء الراشدين " [1]

ثامناً : مخالفة أولياء الأمور في الأمور العامة

ومما يؤخذ على بعض المنتطعين مخالفتهم لأولياء الأمر في بلادهم وعدم الالتزام بقوانين الدولة ولا بفتاوى مفتيها . مع أنه " يجب طاعة الإمام في الأمور العامة وإن أساء ما لم يخرج من الإسلام : ومنهج أهل السنة والجماعة الصلاة خلف أئمة الجور والجهاد معهم ، وإن كانوا فجاراً، والصوم بصومهم والحج بحجهم، وإعطاء الزكاة لهم ففي الصلاة صلى المسلمون خلف الذين حاصروا الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصلى السلف خلف الحجاج والوليد، والمختار بن أبي عبيد ، وأمر النبي ﷺ بالصلاة خلف الولاة وإن كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها وفي الزكاة قال النبي ﷺ : " أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم " (متفق عليه) " [2]

أما أولئك فإنهم لا يعترفون بقوانين الدولة ولا تهمهم مصلحتها فإن أعطت الدولة الأمان للسائحين للسياحة في بلادهم قتلوهم بدعوى أنهم ناشرون للرذيلة والفساد ، وإن جعلت الدولة عصمة أرواح وأموال المواطنين غير المسلمين كعصمة أرواح وأموال المسلمين استباحوا هم دماءهم وأموالهم ، وإن عاهدت الدولة إسرائيل لتسترد أرضها – وقد استردتها بالفعل – اغتالوا الرئيس الذي وقع هذه المعاهدة وانتصر على إسرائيل حرباً وسلماً ...

إن هؤلاء الجهلاء بالدين والدنيا قد نصبوا أنفسهم مفتين في الدين وجنرالات في الحرب وسياسيين في المفاوضات ، وخبراء في الاقتصاد ، ومربين في مجال التربية .. !! والمدهش أن كثيراً منهم لم يكمل تعليمة أو اقتصر علمه على دراسة بعض المتون والحواشي على كتب مات أصحابها من ألف عام أو يزيد .

---

(١) محمد بن المختار الشنقيطي " مخاض الفكر السلفي " .

(٢) عبد الرحمن بن عبد الخالق " القواعد الذهبية في أدب الخلاف " ص ٤

تاسعاً : جعل أمور الدين في مرتبة واحدة

كثير من النصيين الحرفيين يجعلون أمور الدين في مرتبة واحدة فلبس النقاب كفرضية الصلاة ، وحلق اللحية كشرب الخمر ، والرسام والمصور كعابد الأوثان ، وسماع الأغاني والموسيقى كالزنا والفجور إن تركيزهم على مثل هذه الأمور وكثرة الحديث عنها والاستشهاد عليها من أقوال بعض السلف يجعل حلق اللحية وسماع الأغاني وسفور الوجه كترك الصلاة وشرب الخمر والزنا مع أن أمور الدين ليست على درجة واحدة " بل متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول وما يعد من الفروع ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ما هو من الفرائض ، وما هو من النوافل ما هو قطعي وما هو ظني ما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه ما هو في مرتبة الضروريات وما هو في مرتبة الحاجيات وما هو في مرتبة التحسينات على حد تقسيم الأصوليين وهذا أمر جد خطير حتى يأخذ كل عمل مرتبته وتأخذ كل مرتبة حكمها ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض كما يفعل بعض الناس الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسنن معاملة الفرائض والمكروهات كالمحرمات والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها والظنيات كالقطعيات ولهذا تضطرب أحكامهم ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل " (١)

نحن لا ننكر عليهم أن يرسلوا لحاهم ، وألا يسمعوا الموسيقا والغناء مهما كان موضوعها وطريقة أدائها، إنما ننكر عليهم جعل هذه الأمور من فرائض الإسلام وأن المحجبة غير المنتقبة سافرة ، وأن حليق اللحية فاسق ، وأن من يسمع الأغاني والموسيقا – وإن كانت النشيد الوطني لبلاده – خليع ماجن مع أن هذه الأمور من المباحات وأن كثيراً من الفقهاء قديماً وحديثاً قد أجازها " ومن حقائق الحياة أن الناس يتفاوتون في هذه القضية فمنهم المتساهل الميسر ومنهم المتشدد المعسر وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس والمتشدد كابن عمر رضى الله عنهما " (٢)

لكن النصيين الحرفيين أو الظاهريين البدو يأبون إلا أن يفتوا الناس بآرائهم المتشددة ويلزموهم بها وكان عليهم إما أن يبينوا للناس بشيء من اليسر أشهر

---

(١) د. يوسف القرضاوي " نحو وحدة فكرية " ص ١٠٩

(٢) د . يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٣٧

الآراء ويَدَعُوا الناس تختار ما تطمئن إليه قلوبهم ، أو يكتفون بذكر الرأي الأيسر إقتداء بالنبي ﷺ الذي ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما ما لم يكن أثماً .

عاشراً: فرض الرأي بالقوة

وكثيراً ما يلجأ هؤلاء المتنطعين إلى استخدام الشدة بل العنف أحياناً في فرض آرائهم ورمى مخالفيهم بالابتداع ومخالفة السنة وتطاولهم على علماء أفنوا عمرهم في الدعوة إلى دين الله على بصيرة – جاهلين أو متجاهلين – نهج القرآن في خطاب الكفار – فما بالك بخطاب المسلمين – فيقول تعالى { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتي هي أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِه وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (النحل : ١٢٥) وقوله تعالى لموسى وهارون: { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } (طه : ٤٤) فإذا كان موسى أُمر بأن يقول لفرعون قولاً ليناً، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه. وقد قال تعالى { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً } (البقرة : ٨٣)[1]

ويعلمنا الله تعالى أن نخاطب المخالفين لنا في الدين بالتي هي أحسن فضلاً عن أخواننا في الدين { وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هي أَحْسَنُ } (العنكبوت : ٤٦)

إن سمة الداعي إلى الله على بصيرة أن يكون رقيق القلب يعفو عمن أساء ويدعو بالخير لمن أعرض وهكذا كان النبي ﷺ { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } (آل عمران : ١٥٩)

{ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (التوبة : ١٢٨)

أما المتنطعون فإما إن تسلم لهم برأيهم وتلتزم به قولاً وعملاً، وإلا رموك بالابتداع ، ومخالفة السنة ، والخروج على الدين ، وربما يغالى بعضهم فيحمل عليك السلاح! كما حملوه على الرئيس السادات، والشيخ الذهبي، ورفعت المحجوب، ورجال الشرطة ، والأبرياء من المواطنين – رحمهم الله – وكما رفعوه على نجيب محفوظ ، وجميع وزراء الداخلية في العقدين الأخيرين ...

---

(١) القرطبى في تفسير قوله تعالى " "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"

الحادي عشر : الاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى

ومن دلائل عدم الرسوخ في العلم ومن مظاهر ضعف البصيرة بالدين اشتغال عدد من هؤلاء السلفيين بكثير من المسائل الجزئية والأمور الفرعية ، عن القضايا الكبرى التي تتعلق بكينونة الأمة وهويتها ومصيرها فنرى كثيراً منهم يقيم الدنيا من أجل اللحية أو الأخذ منها أو إسبال الثياب ، أو تحريك الإصبع في التشهد ، أو اقتناء الصور الفوتوغرافية أو نحو ذلك من المسائل التي طال فيها الجدال وكثر فيها القيل والقال . هذا في الوقت الذي تزحف فيه العلمانية اللادينية وتنتشر الماركسية الإلحادية ، وترسخ الصهيونية أقدامها ، وتكيد الصليبية كيدها ، وتعمل الفرق المنشقة عملها في جسم الأمة الكبرى وتتعرض الأقطار الإسلامية العريقة في أسيا وأفريقيا لغارات تنصير جديدة يراد بها محو شخصيتها التاريخية وسلخها من ذاتيتها الإسلامية .. والعجيب أن الذين هاجروا أو سافروا إلى ما وراء البحار في أمريكا وكندا وأوروبا لطلب العلم أو طلب الرزق قد نقلوا هذه المعارك الجانبية إلى هناك .. وكان أولى بهؤلاء أن يصرفوا جهودهم إلى ما يحفظ على المسلمين وناشئتهم أصل عقيدتهم ، ويربطهم بأداء الفرائض ، ويجنبهم اقتراف الكبائر .. [1]

كنت في زيارة لأحد المعارف وعندما أذن لصلاة المغرب ذهبت للصلاة في مسجد قريب من بيته وإذا بمن أمَّنا في الصلاة ،وكان شاباً دون العشرين، يقرأ في الفاتحة { مَلِك يوم الدين } لا { مالك يوم الدين } وتأكدت من ذلك في الركعة الثانية فلما انتهت الصلاة انتحيت به جانباً أسأله عن ذلك ، وأنا أعلم أنها إحدى القراءات الصحيحة ، فقال : إنها قراءة نافع وأبو عمرو وغيرهما . فقلت له : ولماذا لم تقرأ بقراءة حفص عن عاصم وهي قراءة مسلمي مصر والسعودية وغالبية بلاد المسلمين ؟ وهل يجوز تعدد القراءات في الصلاة الواحدة ؟ وماذا لو ردك مصل ؟ فقال : لقد حدث كثيراً لكنى لم أعبأ بهم . ، قلت له : وما غرضك من هذه البلبلة وتشتيت الناس ؟ قال : حتى يعلموا أن هناك قراءات أخرى ؟ قلت له : يكون هذا التعليم في دروس العلم لا في الصلاة .. لكنه لم يقتنع فدعوت الله لي وله بالهداية . هذا أنموذج من الشباب المغرم بالتفريق لا التجميع وخوض معارك كلامية لا طائل منها إلا الفرقة .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٧٢

إن بعض الذين يتصدون للدعوة مغيبون عن العالم من حولهم يفتحون الكتب ويقرءون فيها لا يعلمون ما يناسب الناس وما لا يناسبهم كالببغاء يردد كلاماً لا يدرى معناه ولا جدواه وإليكم بعض نوادر إمام المسجد الذي أصلى فيه إنه شاب يقوم بإلقاء خطبة الجمعة وعقد دروس علم بين المغرب والعشاء كل يوم ، يمسك بكتاب من كتب الدين القديمة ويقرأ ويعلق على ما يقرأ وهو أنموذج لكثير من خطباء المساجد المنتشرين في ربوع مصر والعالم الإسلامي ومن نوادره أنه عقد درساً استغرق من المغرب للعشاء كان موضوعه حكم مس الحصى في الصلاة ، وتلفت حولي فوجدت البسط الفاخرة تغطى أرض المسجد ولا أثر لحصاة ولا حتى لحبة رمل في هذا المسجد ولا في غيره من المساجد ولكن الواعظ المتشدق عرض جميع أراء العلماء في حكم مس الحصى في الصلاة فما ضره لو تحدث عن أمراض المجتمع التي تعوق تقدمه وهي كثيرة .

وفي محاضرة أخرى كان موضوعها حكم صلاة الحنفي خلف الشافعي ، وحكى اختلاف العلماء حول القنوت بإسهاب غريب ونظرت حولي فوجدت معظم المصلين من العامة الذين لا يعرفون من المذاهب الإسلامية إلا أسماء أصحابها شأنهم شأن غالبية المسلمين ، وبدلاً من التركيز على الأصول بطريقة عصرية ميسرة محببة وضرب الأمثلة من حياة الناس راح الواعظ يشتت العقول بإقحامهم في صراعات مذهبية عفي عليها الزمن، ولقد خصص هذا الواعظ خطبة جمعة كاملة عن النمل وحكم قتل النمل واختلاف العلماء حول ذلك وعرض عشرات الآراء حول هذا الموضوع وانتهي إلى تحريم قتل النمل إلا قصاصاً – أي إذا قرصتك – !! وخصص خطبة جمعة أخرى يرد فيها على الإمام أبى حنيفة في إباحته دفع زكاة الفطر نقداً !

وهكذا الوعاظ في واد والعالم في واد آخر لأنهم نقلة ولا يعمل أحدهم على استخدام عقله في دراسة ما حوله من متغيرات وما يتناسب معه من تعاليم .

سمع شيخنا الغزالي أحد هؤلاء فقال له " اسمع يا بني لماذا تحيون الخصومات العلمية القديمة ؟ كانت هذه الخصومات ، ودولة الإسلام ممدودة السلطة ، خفيفة الضرر إنكم اليوم تجددونها ودولة الإسلام ضعيفة ، بل لا دولة له فلم تعيدونها جذعة وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضراماً وجهوا الأمة إلى كتاب ربها

وسنة نبيها واشغلوهم بما اشتغل به سلفنا الأول اشتغل بالجهاد في سبيل الله فاعتز وساد مع ملاحظة أنهم كانوا يحررون غيرهم أما نحن فمكلفون بتحرير أنفسنا " [1]

ومما يؤخذ على بعض الجماعات السلفية المعاصرة تحولها إلى ما يشبه المدرسة الكلامية القديمة التي تطنب في الحديث عن دقائق العقائد دون داع شرعي، وهو ما لا ينسجم مع منهج السلف القائم على البساطة، وتجنب الخوض في تلك المباحث إلا لضرورة. وقد كان جديراً بالسلفيين أن يأخذوا العبرة من المعارك التي مزقت لحمة المجتمع الإسلامي خلال القرون السابقة ، وأهدرت طاقاته الفكرية والعملية في الجدل حول أمور لا جدوى من الخوض فيها " [2]

أذكر أنى في مطلع شبابي كنت متأثرا بالمنهج السلفي الكلامي في شرح العقيدة وكنت أخطب الجمع وألقى المحاضرات في العقيدة وذات مرة وبعد أن انتهاء حديث لي كان عن ذات الله تعالى ، عرضت فيه الموضوع كما يعرضه النصيون الحرفيون من أن لله عين بدليل قوله تعالى { وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } (طه : ٣٩) لكنها ليست كعيون مخلوقاته تعالى لأن الله تعالى{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } (الشورى : ١١) وكذلك له يد بدليل قوله تعالى { يد الله فوق أيديهم } لكنها ليست كأيدي مخلوقاته ... بعد المحاضرة اقترب منى رجل بسيط طيب وقال لي سامحك الله لقد أفسدت على إيماني فقد كنت أنزه الله بما يليق بجلاله وكنت عندما أمر بآيات الذات استشعر عظمة الله لكن بعد حديثك هذا لم أعد كذلك . فكرت في كلام الرجل البسيط فوجدته محقاً فيه وأن التفكر في مخلوقات الله أولى من بحث ذاته ولما تدبرت الأمر ملياً وجدت أن منهج الرجل البسيط الفطري هو منهج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فلم يؤثر عن أحدهم الخوض في الحديث عن ذات الله كما خاض فيه النصيون الحرفيون فعزفت عن تكرار هذا ثانية وأصبحت أكتفي عند حديثي عن الله جلَّ وعلا بالحديث عن عظمة الله في خلقه وحكمته في شرعه دون التعرض لقضية الذات والصفات .

ويقال مثل هذا في معارك بعض السلفيين الكلامية الوهمية في الرد على بعد الفرق الدينية التي لم يعد يدين بها أحد من المعاصرين كالمعتزلة والخوارج والمرجئة .. فيقومون بعرض آرائهم والرد عليها ، وهي حرب بلا ميدان مثل

---

(١) " هموم داعية " محمد الغزالى ص١٦

(٢) " مخاض الفكر السلفي " محمد بن المختار الشنقيطى .

حروب دون كيشوت الوهمية فهم يبعثون آراء ماتت ليحاربوها ويـردوا عليهـا !! ليتهم علموا الناس القراءة والكتابة لكان أجدى للأمة وانفع من تعليمهم الخلاف فـي الدين وتعريفهم بآراء أصبحت في ذمة التاريخ .وإثارة موضوعات تجاوزتها الأمـة من قرون .

الثاني عشر : المبالغة في التمسك بالمظهر ، والتفريط في الجوهر

كثير من هؤلاء المتنطعين يتمسكون أشد التمسك في ارتداء الجلابيـب القـصيرة إلى قرب منتصف الساق ، ولبس الغترة الخليجيـة ، وإرسـال اللحيـة ، وتحـريم مشاهدة التلفاز ، وكل أنواع الفنون ، ... وفي نفس الوقت تجدهم لا يخلصون فـي أداء الأعمال الموكولة إليهم والتي يتقاضون عليها أجراً ، ولا يخالقون الناس بخلق حسن حتى وإن كانوا والـديهم أو أبنـاءهم ، أو أزواجهـم ، أو الـصالحين مـن المسلمين، لدرجة جعلت كثير من الناس لا يطمئنون إليهم ولا يستعملون من علـى هيئتهم بعدما أصبحوا عنواناً على الإهمال ورمزاً للعنف ، ودلـيلاً علـى التخلـف والرجعية ، والجدل العقيم ، وهم بهذا يسيئون إلى الإسلام والمسلمين جميعاً ، ومن المؤسف حقاً أن هؤلاء الذين يثيرون الجدل في هذه المسائل الجزئية وينفخون فـي جمرها باستمرار أناساً يعرف عنهم الكثيرون ممن حولهم ، التفريط فـي واجبـات أساسية مثل : بر الوالدين ، أو تحرى الحلال ، أو إتقان العمـل أو رعايـة حـق الزوجة أو حق الأولاد أو حق الجوار ولكنهم يغضوا الطرف عن هذا كله وسـبحوا بل غرقوا في دوامة الجدل الذي أصبح لهم هواية ولذة ، وانتهي بهـم اللـدد فـي الخصومة والمماراة المذمومة وهذا النوع من الجدل هو الذي أشار إليه الحديث " مَا ضَلَّ قَوْم بَعْد هُدًى كَانُوا عَلَيْه إلا أُوتُوا الْجَدَل ، ثُمَّ تَلا ﷺ تِلْكَ الآيَة { مَـا ضَـرَبُوهُ لَك إلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْم خَصِمُونَ } (حديث صحيح رواه أحمد والترمذي وغيرهما)

يقول د. يوسف القرضاوي : " روى لي الإخوة في أمريكا عن أحد الذين ارتفعت أصواتهم بالإنكار على أكل اللحوم المذبوحة من طعام أهل الكتاب مما أفتـى بحلـه عدد من العلماء قديماً وحديثاً وكان هذا من أعلاهم صوتاً وأكثرهم تشدداً وهو فـي نفس الوقت ، كما روى لي الثقات ، لا يبالى أن تكون الخمر على مائدته فهذه نقرة وتلك نقرة ، يعنى أنه يتشدد ويتوقف في المشتبه فيه والمختلف عليه ، علـى حـين يقتحم حمى المحرمات اليقينية الصريحة بلا توقف ولا مبالاة !! .

ومثل هذا الموقف المتناقض ، الاجتراء على الكبائر والوسوسة في التوافه ، هو ما أثار الصحابي الجيل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حين سأله مَن سأله من أهل العراق عن دم البعوض ونحوه بعد أن قتل الحسن بن على فقال : ها ! انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ." (١)

الثالث عشر : إهمال علوم العصر ، وتعمير الأرض

ومن غريب فكرهم وتخلف منطقهم إهمالهم لعلوم العصر والانكباب فقط على دراسة بعض كتب السلف مما كان له أكبر الأثر في نفوس أتباعهم من طلبة المدارس والجامعات فأهملوا دراستهم ، أو كادوا ، أو على أقل تقدير لم يعطوا دراسة العلوم الحديثة الجهد الكافي لتعلمها فضلاً عن المشاركة في تطويرها مما يهدد بمزيد من التخلف والرجعية والتبعية للغرب في العلوم الحديثة بدلاً من منافسته والتفوق عليهم ومحاربتهم بسلاحهم .

إن عقلية السلفي النصي التقليد لا الابتكار والنظر للقديم نظرة تقديس ، والنظر للحديث نظرة ريبة وتوجس ، أو ازدراء واستهجان لأنه مخالف لما حفظة عن القدماء .

مع أن القرآن الكريم حث على العلم الشامل لجميع دروب المعرفة وليس العلم الديني فحسب فقال تعالى {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ للموقنين وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } (الذاريات : ٢٠ – ٢١) وهذه الآية دعوة لدراسة العلوم الكونية جميعها والاستفادة منها ، كما أنها دعوة لدراسة العلوم الخاصة بالإنسان وما يتعلق به من فروع الطب المختلفة ، والهندسة الوراثية ، والصيدلة ، والعلوم الإنسانية وغيرها .

ولقد أمر الله تعالى أن نسأل العلماء فيما يستغلق علينا فهمه من أمور الدين أو الدنيا {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (الأنبياء : ٧)

فالعلماء ، وليس حفظة الذين يرددون ما لا يفقهون ، المتخصصون في علوم الدين والدنيا هم أهل الذكر .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٧٢

وترتب على إهمالنا لعلوم الدنيا وفهمنا غير المتجدد لعلوم الدين أن ورث الكفار الأرض واكتفينا نحن بالدعاء عليهم يقول الله تعالى (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء : ١٠٥)

ولقد مضت سنة الله تعالى في خلقه أن الصالحين لعمارة الأرض هم من يرثونها ويسخرونها لمصلحتهم .

وهذا هو الواقع أن غير المسلمين هم الذين يرثون الأرض الآن ، وأن المسلمين بسبب جهلهم وتخلفهم وعدم أخذهم بعلوم العصر أقصوا عن مقدمة الركب وأصبحوا في ذيل القافلة بل واستولى أعداؤهم على أراضيهم .

إن النصيين الحرفيين لا يدركون هذه الحقيقة القرآنية لا يدركون أن من يعمل للدنيا ويسعى لامتلاك زمام الأمور فيها فإن الله تعالى يؤته جزاءه في الدنيا : تقدم ، وقوة ، وهيمنة ، وعلو ، وليس له في الآخرة من نصيب ومن أراد الآخرة فعليه أن يعبد الله ويعمر الدنيا ويصلح فيها فيؤتيه الله تعالى الدنيا والآخرة { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } (الشورى : ٢٠)

والله تعالى لا يبخس الناس ، وإن كانوا كفاراً ، أعمالهم فمن كان يعمل للتمكين في الدنيا فأخذ في أسباب العلم والتقدم يمكّن الله له في الدنيا أما من كان يريد عبادة لله حقاً فليعمل للدارين فيأخذ في أسباب العلم المادي مع القيام بحق الله عليه .

{ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا }

(الإسراء : ١٨ – ٢٠)

أما النصيون الحرفيون فلا يقيمون للدنيا وزناً ولا يسعون لتعميرها ، ولا يعبدون الله تعالى بالسعي في مناكب الأرض ظانين أن ذالك ليس من موجبات الشرع ! بل مما حرم الشرع الاشتغال به ! فما خلق الله تعالى الإنسان إلا لعبادته والعبادة فقط أركان الإسلام مع الذكر والدعاء وقراءة القرآن !! فإصلاح الدنيا يتناقض مع عبادة الله .

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن دساتير الحكم وأساليب الشورى وتداول المال وتظالم الطبقات ومشكلات الشباب ومتاعب الأسرة وتربية الأخلاق ..ثم هو لا يدرى قليلاً ولا كثيراً عن تطويع الحياة المدنية وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة لها تهيج وبها تنفعل وعليها تصالح وتخاصم! " [1]

وتناسى هؤلاء قول الله تعالى : { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١)

إن كل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان .

وإياك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصنيفية التي في الفقه " قسم العبادات " و" قسم المعاملات " .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما في الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لنرقي بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضي الله عنه . [2]

وفي الحديث الصحيح " أنتم أعلم بأمر دنياكم " توجيه نبوي حكيم إلى أن شئون الدنيا موكولة للعلم والعلماء الذين يعملون عقولهم في تسخير قوانين الطبيعة من أجل صالح البشر .

---

(١) محمد الغزالى " هموم داعية " ص ٣٠ .

(٢) تفسير الشيخ الشعراوي ص ١٥٠٦ .

الدنيا عند المتنطعين لا وزن لها ولا قيمة وطلابها عبيد لها ، والسعي فيها انشغال بها ، ولم يفهموا آيات القرآن التي تكلمت عن الدنيا والأحاديث الشريفة إلا على أنها تبغضهم في الدنيا بحلالها وحرامها ، وتأمرهم بطرحها بالكلية والتفرغ للعبادة ولا يكون العمل إلا لكسب لقمة العيش فقط وليس العمل الذي يجعل الدنيا في قبضة المسلمين ليس بقوة السلاح فقط إنما بقوة العلم أيضا وفي هذا المقام يجدر بنا أن نوضح مفهوم الدنيا المبغوضة من الله ورسوله والتي أمرنا ديننا الحنيف بألا تغرنا.

إن الناظر في الآيات التي تتحدث عن الدنيا يتراءى له الأمر جليّاً أن الله تعالى يقصد بها دنيا الكفار والعصاة تلك الدنيا التي لا يعرف عبيدها لهم رباً سواها ، تلك الدنيا التي تنسيهم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً لذا يجعلها الله تعالى في كثير من الآيات مقابلة للآخرة فإن كان العمل للآخرة يعنى الإيمان بالله الواحد الأحد الذي سخر الكون لعباده وأمرهم بإخلاص العبادة له وتعمير الكون فإن الدنيا تعنى الانشغال بالمسخَّر عن المسخِّر ، وآفة هؤلاء ليست العمل في الدنيا والاستمتاع بها فالله تعالى أمرنا بالعمل فيها واستعمارها على لسان رسله { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } (هود : ٦١)

إنما آفة طلاب الدنيا هي نسيان الله المنعم والكفر بالآخرة .

{ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } (الأعراف : ٥١)

وعلى العقل الناضج أن يعامل الدنيا دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انجرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

الرابع عشر : تطبيق عادات الجاهلية على المرأة المسلمة

إن الظاهريين البدو ومن شايعهم من النصبيين الحرفيين يريدون أن يلبسوا الإسلام ثوب العادات العربية بل والجاهلية أيضاً فإذا كان العرب من عادتهم لبس الجلباب

فإن الجلباب يصبح عند هؤلاء السلفيين ديناً ، وإذا كانت المرأة في الجاهلية مجلبة للعار والأفضل أن تدفن حية وإن منُّوا عليها بالحياة فلا يجب أن يراها أحد ولا ترى أحداً ولا حق لها في تعليم أو عمل أو ميراث بل هي مما يورث كسائر المتاع كما أنها يجب أن تعيش حبيسة البيت فلا تخرج من بيتها إلا إلى بيت زوجها أو إلى القبر وصوتها عورة وكل جسدها عورة حتى وجهها وكفيها .. وهذه من العادات الجاهلية التي جاء الإسلام فأبطلها ، بل وجعل النبي العودة إلى هذه العادات البدوية من الكبائر فقال " اجتنبوا الكبائر السبع الشرك بالله وقتل النفس والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وقذف المحصنة والتعرب بعد الهجرة " (رواه الطبراني وصححه الألباني) " والتعرب بعد الهجرة " هو أن يعود إلى البَادية ويُقِيمَ مع الأَعرَاب بعدَ أن كانَ مُهَاجراً. وكان من رَجَع بعدَ الهِجْرة إلى موضِعه من غير عُذْر يَعدُّونه كالمُرْتَدّ " (١)

ونعى الله تعالى على الجاهليين وأدهم للبنات فقال :

{ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَى ذَنبٍ قُتِلَتْ } (التكوير : ٩)

كما حكم الله تعالى على جاهليين بالظلم وبسوء الحكم إذ يفضلون الذكر على الأنثى يقول تعالى : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ } (النحل : ٥٩)

وجاء الإسلام ليسوى بين الرجل والمرأة " في معظم شئون الحياة ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة الجنسين ومراعاة المصلحة العامة والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها ، وبل ومنفعة المرأة ذاتها .وكثير من حقوق المرأة التي أعطتها شريعة الإسلام لها حرمها منها هؤلاء النصيون الحرفيون واستبدلوا حكم الجاهلية بحكم الله تعالى . { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (المائدة : ٥٠)

أما الظاهريون البدو فقد حرموا المرأة من حق التعليم من أنه فريضة على كل مسلم ذكراً كان أو أنثى " طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ " (رواه ابن ماجة

(١) ابن الأثير " النهاية في غريب الحديث والأثر "باب العين مع الراء .

وصححه الألباني) ، وحرموها من حق العمل خارج بيتها إذا اقتضت الظروف ذلك، كما حرموها ممارسة حقوقها المدنية ، كما جعلوها عورة يجب أن تظل حبيسة البيت ، وإن خرجت فلا يرى منها شيء ولا يسمع منها صوت وأن تكون في حراسة أحد محارمها ولا تستأذن في أي من الأمور وإن كان في أمر زواجها..

ولقد فطن العلماء من زمن بعيد إلى أن البدوي الجلف قاسى القلب ، بحكم البيئة القاسية التي تربى فيها ، لا يؤم الحضري الذي هذبته الحضارة وارتقى به العلم " المالكية قالوا: تكره إمامة البدوي ، وهو ساكن البادية ، للحضري ، ساكن المدن، ولو كان البدوي أكثر قراءة من الحضري، أو أشد إتقاناً للقراءة منه، لما فيه من الجفاء والغلظة، والإمام شافع فينبغي أن يكون ذا لين ورحمة " (١)

بل إن رسول الله ﷺ لم يجز شهادة البدوي فعن أبى هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " لا تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدَوَى عَلَى صَاحِبِ قَرْيَةٍ " إنما كره شهادة البدوي لما فيه من الجفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها " (٢)

وقد نزل في حقهم: { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ } (التوبة : ٩٧) ويقول تعالى : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (المائدة : ٥٠)

ينكر تعالى على من خرج عن حكم اللّه المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللّه، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم " (٣)

وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ " أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه " ويشرح البخاري الحديث فيقول : " أبغض الناس" أكثرهم عقاباً

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى "الفقه على المذاهب الأربعة " مبحث إمامة الصلاة .
(٢) " عون المعبود شرح سنن أبى داود " للآبادى باب شهادة البدوي على أهل الأمصار .
(٣) " تفسير ابن كثير " للآية الكريمة .

منه وبعداً عن رحمته. " ملحد " ظالم مائل عن الحق والعدل بارتكاب المعصية. "مبتغ " طالب ومتبع . " سنة الجاهلية " طريقتها وعاداتها وأخلاق أهلها. "مطَّلب"متكلف للطلب وساع وراءه في كل مكان. " بغير حق " يستبيح دمه. "ليهريق دمه" ليسيله، وهو كناية عن القتل.

فكيف يتصدى هؤلاء البدو الظاهريون الذين لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ لإفتاء الناس في مصر والعراق والشام والمغرب العربي ... وأوربا وأمريكا وسائر البلاد المتقدمة ، إنهم معزولون عن العالم الخارجي لا يدرون ما وراء بلادهم ولا يعلمون عن أحوال الناس وظروف حياتهم ما يجعلهم يفتونهم والعجيب أنهم ينهالون تجريحاً وطعناً في كل عالم فقيه يحاول أن ييسر على الناس دينهم ! لقد كان من جراء ذلك أن صدوا عن دين الله وبغَّضوا الناس في الإسلام ، وأقنطوا الناس من رحمة الله تعالى ، وألزموهم بعادات بدوية ليست من الإسلام وجعلوها لهم دينا ، والمدهش أن هؤلاء البدو الأجلاف المتنطعين متكبرون مكابرون يصرون على قصر فهم الدين عليهم وحدهم ولا يسمحون بالاختلاف معهم وكأن الدين ميراث شخصي ورثوه كما ورثوا لبس الجلابيب والغترة .

الخامس عشر : نشر الخلاف بين المسلمين والتشنيع بالمخالفين

كثير من المتنطعين لا عمل له ولا غاية إلا تتبع وتصيد أخطاء وزلات غيره من علماء الإسلام ودعاته والتشنيع عليهم بها مع أنه لا تشنيع ولا تفسيق ولا تبديع للمخالف في الأمور الاجتهادية :

ولا يجوز اتهام المخالف ولا التشنيع عليه ، ولا ذكره من أجل مخالفته ، ولا تبديعه ، ولا تفسيقه ومن صنع شيئاً من ذلك فهو المبتدع المخالف لإجماع الصحابة.

قال ابن تيمية : وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ فِي مَسَائِلَ تَنَازَعُوا فِيهَا ؛ عَلَى إقْرَارِ كُلِّ فَرِيقٍ لِلْفَرِيقِ الآخَرِ عَلَى الْعَمَلِ بِاجْتِهَادِهِمْ كَمَسَائِلَ فِي الْعِبَادَاتِ والمناكح وَالْمَوَارِيثِ وَالْعَطَاءِ وَالسِّيَاسَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَحَكَمَ عُمَرُ أَوَّلَ عَامٍ فِي الْفَرِيضَةِ الحمارية بِعَدَمِ التَّشْرِيكِ وَفِي الْعَامِ الثَّانِي بِالتَّشْرِيكِ فِي وَاقِعَةٍ مِثْلِ الْأُولَى وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ : تِلْكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا وَهَذِهِ عَلَى مَا نَقْضِي . وَهُمْ الْأَئِمَّةُ الَّذِينَ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ أَنَّهُمْ لا

يَجْتَمِعُونَ عَلَى بَاطِلٍ وَلا ضَلالَةٍ وَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى وُجُوبِ مُتَابَعَتِهِمْ . وَتَنَازَعُوا فِي مَسَائِلَ عِلْمِيَّةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ كَسَمَاعِ الْمَيِّتِ صَوْتَ الْحَيِّ وَتَعْذِيبِ الْمَيِّتِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ وَرُؤْيَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَبَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ مَعَ بَقَاءِ الْجَمَاعَةِ وَالأُلْفَةِ . وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ مِنْهَا مَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ قَطْعًا وَمِنْهَا مَا الْمُصِيبُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ وَاحِدٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَتْبَاعِ السَّلَفِ وَالآخَرُ مُؤَدٍّ لِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِدْرَاكِهِ وَهَلْ يُقَالُ لَهُ : مُصِيبٌ أَوْ مُخْطِئٌ ؟ فِيهِ نِزَاعٌ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الْجَمِيعَ مُصِيبِينَ وَلا حُكْمَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ . وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهُ لا إِثْمَ عَلَى مَنْ اجْتَهَدَ وَإِنْ أَخْطَأَ ." (١)

ومن عوارهم أنهم لا يحفظون لعالم حرمة ولا يلتمسون لفقيه عذر بل هم سيوف بتارة على كل من خالفهم من العلماء والمفكرين المجتهدين يتهمونهم بأنهم علماء السلطان ، أو علماء الحيض والنفاس ، فشيخ الأزهر في نظرهم أرضى الحكومة في سخط الله ، ومفتى الديار المصرية يحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ، وبقية علماء الأمة ، ممن خالف رأيهم ، إما جهلة متطفلون على موائد العلم أو منافقون يفصِّلون الفتوى حسب طلب سادتهم !! ولا يكاد يسلم واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء والعجيب أن هذه الأحكام الجريئة على الحق وأهله تصدر من أناس أقل ما يصفون به الجهل وسوء الأدب ، وعلى الجملة " إذا عرض داعية الإسلام عرضا يلائم ذوق العصر متكلما بلسان زمانه ليبين لهم فهو متهم بالهزيمة النفسية أمام الغرب وحضارة الغرب "(٢) .

ولقد سمعت شاباً متحمساً ذات مرة يطعن في شيخ الأزهر (الشيخ سيد طنطاوي) فقلت له لماذا تسب عالماً من علماء الدين أفنى عمره في العلم والتعليم وخدمة الدين؟ فقال ، غفر الله له ، لأنه يبيح الربا !! قلت له أتعرف ما معنى أن مسلماً يبيح الربا ؟ إن ذلك يعنى أنه كافر مرتد خارج عن الملة مستحق للقتل وإذا مات لا يغسَّل ولا يكفَّن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مدافن المسلمين ، هل شيخ الأزهر الشريف العالم الجليل حافظ كتاب الله بل له تفسير بديع للقرآن الكريم كافر مرتد ؟!

هل قرأت ما كتبه في المعاملات المصرفية ؟ فقال لا .. قلت هل تعلم أن لجنة البحوث الفقهية ، بمجمع البحوث الإسلامية ، عُقدت لبحث الحكم الشرعي لشهادات الاستثمار وأرباحها سنة ١٩٧٦م وكانت تتكون من أربعة عشر فقيهاً يمثلون

---

(١) ابن تيمية " مجموع الفتاوى " ج ١٩ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٥٠

المذاهب الأربعة ، وكان قرار اللجنة أن تسعة منهم ذهبوا إلى أن هذه الشهادات وأرباحها جائزة شرعاً ويكفي أن نقول أن من بين هؤلاء التسعة المجيزين لأرباح شهادات الاستثمار أصحاب الفضيلة : عبد الله المشد ، وزكريا البرى ، وعبد الجيل عيسى ، يس سويلم ..، ويكفي أن نقول أن من غير هؤلاء العلماء التسعة خلقاً كثيرين أباحوا هذه المعاملات على رأسهم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف والشيخ محمد عبده ، وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في كتابه الفتاوى ، والشيخ عبد الوهاب خلاف ، والشيخ عبد المنعم النمر ، الشيخ على الخفيف والمفكر الإسلامي فهمي هويدي و ... وما أفتى به د.محمد سيد طنطاوي كان بُناءً على قرار لجنة البحوث الفقهية فهل يعد الرجل مبيحاً للربا ؟! أم مجتهداً له أجر أن أخطأ وأجران إن أصاب ؟ كما بين خير الأنام ﷺ .

ثم إنك في النهاية مخير بين أن تأخذ بالرأي الذي يستريح إليه قلبك دون أن تصدر أحكاماً على علماء أفنوا أعمارهم في طلب الحق وتحصيله ، ومن أنت حتى تصدر أحكاماً بالكفر على علماء الأمة ؟! إن من أخس صفات هؤلاء المتنطعين أكلهم لحوم العلماء قال ابن عساكر: اعلم يا أخي وفقني اللّه وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة اللّه في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه اللّه قبل موته بموت القلب { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (النور : ٦٣)

ومن أمثلة تطاولهم على العلماء تطاولهم على الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – العالم الجيل ومن مجددي الإسلام في القرن العشرين فقد اتهموه بمعاداة السنة وليت الأمر اقتصر على القول فقط بل تعداه إلى تأليف الكتب في ذم الرجل والهجوم عليه[١] رحم الله الشيخ الغزالي لقد كان عالماً عاملاً – نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحداً – أفنى عمره في خدمة الإسلام كما لم يخدمه عالم في العصر الحديث ومات وهو يلقى محاضرة يدافع فيها عن الإسلام ضد أعدائه "ودفن في البقيع بين الإمام مالك وإبراهيم ابن النبي ﷺ "[٢]. كذلك لم يسلم منهم فقيه العصر

---

(١) مثل كتاب " جنايات الشيخ الغزالى على الحديث وأهله " لأشرف بن عبد المقصود ، و كتاب " حوار هادئ مع محمد الغزالى " لسليمان العودة .

(٢) نقلا عن الأستاذ عمر خالد الداعية المعروف .

د. يوسف القرضاوى العالم الجليل والفقيه العظيم تلميذ الشيخ محمد الغزالي ، ولم يسلم منهم د. عبد الصبور شاهين العالم المستنير فقد رموه بالكفر بسبب كتاب ألفه "أبى آدم" وأقيمت ضده دعوى تكفير رفضت لأن د. عبد الصبور اجتهد في بحث مسألة من المختلف حوله في مسائل الدين فهو مأجور وإن أخطأ ، ولم يسلم منهم د. مصطفي محمود صاحب البرنامج العظيم " العلم والإيمان " بسبب كتابه "الشفاعة" بين فيه مفهومه للشفاعة التي أساء الناس فهمها ولم يعجب هذا سدنة الدين وكهان الإسلام فرموه بالكفر والخروج عن الملة ، والمدهش حقاً أن أغلب من كفَّر وخطَّأ هؤلاء العلماء لم يقرأ ما كتبوه إنما هم ببغاوات تردد ما تسمع ، ومن قرأ كتب هؤلاء العلماء لم يفهم ما قرأ ومن فهم لم يرق لمستوى هؤلاء العلماء الأجلاء ليقدر علمهم واجتهادهم !

ولقد حذر النبي من لعن المؤمن ومن قذفه وعد لذلك قتلاً

قال ﷺ " من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة " (متفق عليه)

فكم مؤمن قتل هؤلاء ! وكم عالم لعنوه وقذفوه ! وإنا لله وإن إليه راجعون .

لقد دأب بعض المتنطعين من دعاة الإسلام على تأجيج الخلاف بين المسلمين على مسائل فرعية مع أن إبقاء الأخوة مع الخلاف في الرأي في المسائل الخلافية أولى من دفع المخالف إلى الشقاق والعداوة : إذا علمت من مخالفك أنه لا يبقى أخاً إلا ببقائه على ما هو عليه من أمر مرجوح ورأى مخالف للحق في نظرك فتركه على ما هو عليه أولى من دفعه إلى الشقاق والخلاف لأن بقاء المسلمين أخوة في الدين مع اختلافهم في المسائل الاجتهادية خير من تفرقهم وتمزقهم وبقائهم على خلافاتهم .. لا يجوز لمسلم أن يقاطع أخاه المسلم لرأى ارتآه، أو اجتهاد اجتهد فيه ما دام يعلم أنه تحرى الحق، واتبع ما يظن أنه الصواب، ولا يجوز في مثل هذه الحالة هجران أو تعزير، ولا شك أنه لو أن كل مختلفين تهاجرا لم يبق مسلم مع مسلم "(١)

---

(١) نفسه ص٧ .

وهؤلاء المتنطعون يفضلون تمزيق جماعة المسلمين مع تمسكهم برأيهم على رأب صدع الأمة مع قبول آراء المخالفين لهم !!

يقول حسن البنا في الأصل الثامن من رسالة " التعاليم " الخلاف الفقهي في الفرعيات لا يجب أن يتسبب في اختلاف بين الأطراف أو سبباً للتفريق في الدين ، أو يؤدي إلي خصومة ولا بغضاء " الاختلاف لا يفسد للود قضية " .

من سنة الإسلام إحسان الظن بالناس وعدم اتهام نواياهم .

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله " إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رَسُول ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، اللَّه يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة " فشريعة الإسلام تقضى بألا يسئ المسلم الظن بغيره " مهما كان مخالفك مخالفاً للحق في نظرك فإياك أن تتهم نيته، افترض في المسلم الذي يؤمن بالقرآن والسنة ولا يخرج عن إجماع الأمة، افترض فيه الإخلاص، ومحبة الله ورسوله ﷺ والرغبة في الوصول إلى الحق، وناظره على هذا الأساس،وكن سليم الصدر نحوه.

لا شك أنك بهذه الطريقة ستجتهد في أن توصله إلى الحق إن كان الحق في جانبك وأما إذا افترضت فيه من البداية سوء النية ، وقبح المقصد فإن نقاشك معه سيأخذ منحى آخر وهو إرادة كشفه وإحراجه ، وإخراج ما تظن أنه خبيئة عنده، وقد يبادلك مثل هذا الشعور، فينقلب النقاش عداوة، والرغبة في الوصول إلى الحق رغبة في تحطيم المخالف وبيان ضلاله وانحرافه." [1]. وكثير من هؤلاء المتنطعين ما يكاد أحد يناقشه في مسألة من المسائل ويختلف معه فيها إلا وانتفخت أوداجه ورمى محدثه بسوء النية وقبح الطوية ومعاداة السنة ومخالفة السلف !

السادس عشر : عدم الأخذ بسنة التدرج

بعض المتنطعين يريد ممن يدعوه أن يلتزم بكل ما يلزموه به دفعة واحدة ودون تفريق بين ما هو من الأصول وما هو من الفروع ، وما هو من الأركان وما هو من المكملات ، و ما هو من الفرائض وما هو من النوافل ، ما هو متفق عليه وما

(١) عبد الرحمن بن عبد " القواعد الذهبية في أدب الخلاف " الخالق ص ٥ .

هو مختلف فيه ، فمع إلزامهم للمدعو بالصلاة يلزمونه بعدم الصلاة في المساجد التي فيها قبور كمساجد السيدة زينب ، وسيدنا الحسين ، والسيدة عائشة ، والسيدة نفيسة وغيرها ، ويحرمون عليه لبس الملابس الإفرنجية ، وإسبال الإزار ، وحلق اللحية ، وسماع الغناء ، والرسم وتصوير ، والعمل في البنوك مع تحريمهم عليه الزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير كل ذلك وغيره يريدونه أن يلتزم به دون تدرج مما يجعل الناس يردُّون ما يلزمونه به كله ، فبذلك يصدون عن دين الله والعجيب أنهم يعرضون الإسلام بهذه الطريقة في بلاد غير المسلمين فيقولون لمن تريد أن تدخل في الإسلام إن صوتك عورة فيجب ألا يسمع صوتك رجل حتى ولو كنت تقرئين القرآن ، وجسمك كله عورة فيجب ألا يظهر منك وجه ولا أيدي ، وخروجك من البيت حرام فيجب أن تتركي عملك وتلزمي بيتك وإذا دعوا رجلاً للإسلام ألزموه أول ما يلزمونه " جلباباً أبيض وعمامة فوقها عقال أو ليس فوقها عقال ! ما هذا ؟! أ هذه دعوة إلى الإسلام أم إلى تقاليد البادية العربية "(١)

والتدرج سنة كونية ، وسنة شرعية . ولهذا خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وكان قادرا أن يقول كن فتكون .. وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها . فهذا من الناحية الكونية، وأما من الناحية الشرعية ، فقد بدا الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة السليمة ، ثم كان التشريع شيئا فشيئا فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدريج ، كما هو ثابت في فرض الصلاة والصيام والزكاة ، وتحريم الخمر وغيرها ولهذا افترق القرآن المكي عن القرآن المدني وفي هذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها واصفة تدرج التشريع ونزول القرآن " إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: { بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ }. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده " .

أراد عمر بن العزيز أن يعود بالحياة إلى هدى الخلفاء الراشدين الأربعة وذلك بعد أن يتمكن ويمسك الخيوط في يديه ولكن ابنه الشاب الغيور عبد الملك من

---

(١) محمد الغزالى " مستقبل الإسلام خارج أرضه " ص ٥٤

الأتقياء المتحمسين ، ينكر على أبيه عدم إسراعه في إزالة كل بقايا الانحراف والمظالم والتعفية على آثارها ، ورد الأمور إلى سنن الراشدين فقال له يوماً : مالك يا أبت لا تنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالى ، لو أن القدور غلت بي وبك في الحق !

فكان جواب الأب الفقيه المؤمن : لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة ، إني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة ، فيكون من ذا فتنة . (١)

إن الله تعالى لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة، فكذلك تحريم الخمر . (٢)

السابع عشر : إهمال الإصلاح الاجتماعي

فالواحد من هؤلاء قد تتعثر قدمه في القاذورات وتلال القمامة وهو يغدو ويروح إلى المسجد فلا تستوقفه هذه المناظر القبيحة والروائح الكريهة ، وقد تخترق أذنه أصوات آلات تنبيه السيارات أو مكبرات الصوت في المحال ، والأفراح التي تبيت حتى الفجر تصدح بأصوات منكرة في أحياء مكتظة بالسكان ، وفوضى المرور وعشوائية الباعة .. يرى كل هذا وغيره دون أن يكلف نفسه عناء إرشاد الناس وتعليمهم حسن السلوك وآداب الطريق وأهمية النظافة والنظام في حياة الشعوب كأن هذه الأمور ليست من الدين أو أنها ليست من مهمة رجال الدين إصلاحها مع أنها من صميم الدين ، وأولى واجبات رجال الدين فالناس تحب الدين وتتأثر بكلام رجاله فعلى رجال الدين أن ينبهوا الناس إلى السيئ من الأقوال والأعمال حتى تنصلح أحوالهم .

أتدرون لماذا لا يلتفت هؤلاء المتنطعون إلى سلبيات المجتمع في النظافة والنظام والسلوكيات ومحاولة إصلاحها ؟ لأن هذه السلبيات غير منصوص عليها في كتب السالفين – بالطبع لأنها لم تكن موجودة على أيامهم – ولو سجلوها لما كفَّ

---

(١) الشاطبي " الموافقات " ج ٢ ص ١٤٢

(٢) " تفسير القرطبى " لقوله تعالى { "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما"

أصحابنا عن ترديدها في مواعظهم !! . أيها السادة إن الإسلام دين حضاري ومن أساسيات الحضارة النظافة والنظام والعمل والإتقان .

إن الوظيفة الرئيسية لكل دين جدير بهذا الاسم تهذيب طباع الإنسان ومواجهة غرائزه الحيوانية لكي يصبح إنساناً رفيع الخلق والطباع ومأمون في معاملاته ولا يمكن أن يقتصر معنى الدين على انقطاع الإنسان عن العمل وتركيز الجهد كله على عبادة الله فإن الله سبحانه ليس في حاجة إلى عبادة الناس ، حقاً إن الله سبحانه يقول : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ " والعبادة هنا يدخل فيها العمل وكسب الرزق والقيام بكل ما يصلح الأرض والناس " (١)

الثامن عشر : عدم مخاطبة الناس على قدر عقولهم

من غريب أمر المتنطعين أنهم يتحدثون في الفضائيات في مسائل لا ينبغي أن تناقش أمام العامة بل تناقش في مجالس العلماء الخاصة ، ولكنهم لا يراعون في دعوتهم اختلاف عقول الناس فيخاطبون عامة الناس بما لا يصح أن يخاطب به إلا الخاصة كالخلافات بين المذاهب وترجيح رأى على رأى ، أو الخلافات التي وقعت بين الصحابة حول القضايا السياسية والحكم ، وكتفصيل الكلام عن الفرق الإسلامية.. كما أنهم لا يراعون سن ونوع المخاطب مما يجعل حديثهم فتنة لبعض الناس ، وكثير من هؤلاء كانوا سبباً في الصد عن الدين فإن أحدهم ليجعل خطبته لشباب صغير السن في عمر الزهور عن عذاب القبر ، وما أدراك ما عذاب القبر عند هؤلاء ، إنه أقرب إلى أفلام الرعب منه إلى دين الله ، ويقارن الشاب الصغير بين ما يسمع من هذا الواعظ وبين ما يسمع من دعاة الشيطان الذين يحببونه في المعاصي ويزينون له الحرام وييسرنه له ، فيجد أن الواعظ قد سد أمامه كل أبواب الرحمة وفتح له كل أبواب النيران أما أولئك فقد فتحوا له كل أبواب الملذات . فماذا يفعل المسكين ؟ إنه شاب يريد أن يعيش حياته ويستمتع بها والدين – كما سمع من وعاظ السوء – يحرم عليه كل المباحات والملذات والطيبات ؟! فيفتن في دينه ويشك في كل ما يسمع ويلق بنفسه في بحر المعاصي والآثام !

ما ضر هؤلاء الوعاظ لو ترفقوا بهؤلاء الشباب ويسروا عليهم دينهم ولم يخاطبوهم بما لا تتقبله عقولهم ، ما ضرهم لو حببوا إليهم الإيمان وزينوه لهم

---

(١) د . حسين مؤنس " المصريون والحضارة " ص ٧٥

بالحكمة والموعظة الحسنة ، ما ضرهم لو فتحوا أمام العاصي أبواب التوبة والمغفرة .

ولو سئل عن عذاب القبر قال إنه روضة من رياض الجنة للمؤمن وحفرة من حفر النار للكافر ومرتكب كبائر الذنوب .

عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما أنت بمحدث قوماً حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. وقال ﷺ : " حدث الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ". وهذا محمول على بعض العلوم، كعلم الكلام أو ما لا يستوي في فهمه جميع العوام، فحكم العالم أن يحدث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته " [1]

إن المدرس ينبغي أن يكلم كل طالب على قدر فهمه وعقله فيجيبه بما يحتمله حاله ومن اشتغل بعمارة أو تجارة أو مهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على قدر ما يحتاج إليه من هو في رتبته من العامة وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن ولا يولد له الشبه والشكوك فإن اتفق اضطراب نفس بعضهم بشبهة تولدت له أو ولدها له ذو بدعة فتاقت إلى معرفة حقيقتها اختبره فإن وجده ذا طبع موفق للعلم وفهم ثابت وتصور صائب خلى بينه وبين التعلم وسوعد عليه لما يجد من السبيل إليه وإن وجده شريراً في طبعه أو ناقصاً في فهمه منعه أشد المنع ففي اشتغاله مفسدتان تعطله عما يعود نفعه إلى العباد والبلاد وشغله بما يكثر من شبهة وليس فيه منفعة وكان بعض المتقدمين إذا ترشح أحدهم لمعرفة حقائق العلوم والخروج من العامة إلى الخاصة اختبر فإن لم يوجد خيراً أو غير منتهي للتعلم منع وإلا شورط على أن يقيد بقيد في دار الحكمة ويمنع أن يخرج حتى يحصل العلم أو يأبى عليه الموت ويقولون إن من شرع في حقائق العلوم ثم لم يبرع فيها تولدت له الشبه وتكثر عليه فيصير ضالاً مضلاً فيعظم على الناس ضرره وبهذا النظر قيل نعوذ باللّه من نصف فقيه أو متكلم. [2]

كذلك فإن خطابهم الديني واحد لكل فئات المجتمع المختلفة بل لكل بلاد المسلمين المتباينة والمدهش حقاً أن خطابهم الديني الواحد لكل مسلم في كل زمان ومكان ،

---

(١) " تفسير القرطبي " في قوله تعالى { إن الذين يكتمون ما أنزلنا }

(٢) الإمام المناوى " فيض القدير في شرح الجماع الصغير " .الجزء الثالث حرف الحاء .

فعندهم أن فروع الدين ، المختلف عليها ، يجب أن يلتزم بفهمهم الخاص لها : المسلم البدوي ، والخليجي ، والمصري ، والعراقي ، والمغربي بل والروسي ، والأمريكي ، والفرنسي ، والهندي ، والإندونيسي .. على ما بين هؤلاء من اختلاف كبير جداً في الثقافة والتعليم والعادات والتقاليد !! فإذا كانت المسلمة في الخليج يمكن أن تتقبل النقاب فهل نلزم به المسلمة الأوربية والأمريكية ؟ ونجعله لها فريضة واجبه ، وإذا كان البدوي يتقبل إرسال لحيته ولبس الجلباب والعمامة فهو يعتبرها من ميراث الأجداد ومن كمال الرجولة ، فهل من المنطق أن أفرض على المسلم الحضري أو الذي يعيش في الغرب إرسال لحيته ولبس الجلباب والعمامة حتى يكون مسلما ؟! وإذا كان البدوي والخليجي يفضل الأكل بيديه لأنه لم يتعود استعمال الشوك والسكاكين ويفضل الجلوس على الأرض وهو يأكل فهل من الإسلام أن ألزم مسلمي العالم كله بهذه العادات وأجعلها لهم دينا ؟!

مما ينكر من التشدد أن يكون في غير مكانه وزمانه كأن يكون في غير دار الإسلام وبلاده الأصلية أو مع قوم حديثي عهد بإسلام أو حديثي عهد بتوبة فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعية والأمور الخلافية والتركيز معهم على الكليات قبل الجزئيات والأصول قبل الفروع تصحيح عقائدهم أولا فإذا اطمأن إليها دعاهم إلى أركان الإسلام ، ثم إلى شعب الإيمان ثم إلى مقامات الإحسان "[1] .

التاسع عشر : عدم استخدام الطرق العصرية في الدعوة

وهم لا يعملون على تطوير وسائل الدعوة إلى دين الله تعالى فهم لا يعرفون إلا الخطب المنبرية والكتب الدينية وسيلة لتعليم الناس في الوقت الذي نجح أعداء الدين في استخدام وسائل جذابة وعصرية لبث سمومهم ، ويرجع عدم اهتمامهم بالوسائل الحديثة إما للجهل بها والتخلف عن مواكبتها ، أو بسبب اعتقادهم أنها من البدع المحرمة ومن وسائل الشيطان ، فالتليفزيون حرام ، والتمثيل رجس من عمل الشيطان ، والغناء مزمار الشيطان .. إن الجمود وعبادة عادات الآباء والأجداد داء عضال فلقد ظل قادتنا الأشاوس يحشدون الفلاحين والعمال المهنيين إلى ميادين القتال ويزجون بهم في معارك يستخدم فيها العدو أحدث الأجهزة التكنولوجية والوسائل العلمية المتطورة وكان على الفلاح المصري الذي لم يطور آلات

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٤

الزراعة التي ورثها عن أجداده الفراعنة : الفأس والمحراث والشادوف والنورج .. ويشرب من الترعة ويبنى بيوته من الطين ويضيء بيته بمصباح الزيت ويسير حافيا وينام على الحصير كان هذا الفلاح في ظن قادتنا الأشاوس بمقدوره مواجهة اليهود !! والنتيجة معروفة هزائم متلاحقة وضياع للأرض و للكرامة حتى أدركتنا العناية الإلهية وبعث لنا الله من جند طلاب الجامعة والمتعلمين القادرين على استيعاب المعدات الحديثة فكان نصر العاشر من رمضان المجيد .

إن هؤلاء المتنطعين يظنون أن الدنيا تسير للخلف وانه ليس في الإمكان أبدع مما كان وأن وسيلة الدعوة قد قيلت فيها الكلمة الأخير ولا مجال لتغيير أو تعديل !! نحن نقول لهم هلا نظرت إلى عدوك وعرفت كيف سرق منك أهلك وعشرتك وشكلهم بفكره وأخلاقه عن طريق استخدامه للطرق الحديثة في التأثير على الناس؟! سؤال آخر كم مسلم ومسلمة يشاهد التلفزيون ، ويتأثر بما يقدم فيه ، وكم مسلم ومسلمة يسمع خطب الجمعة ويتأثر بما قيل فيها ؟ أفيقوا أيها المسلمون وكفي غفلة وركون والناس من حولنا مستيقظون ومتربصون .

العشرون : إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى

بعض المتنطعين يريدون أن يشرعوا للناس ويلزمونهم بما لم يلزمهم به الله تعالى فيجعلون السنن فرائض ، والمكروهات محرمات . والمفروض ألا نلزم الناس إلا بما ألزمهم الله تعالى به جزماً وما زاد على ذلك فهم مخيرون فيه إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا .

يقول تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (الشورى : ٢١) أي ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه . " ولطالما قلت : إن حسبنا من المسلم في هذا العصر أن يؤدى الفرائض ويجتنب الكبائر لنعتبره في صف المسلمين وأنصاره ما دام ولاؤه لله ورسوله وإن ألمَّ ببعض الصغائر من المحرمات فعنده من الحسنات مثل : الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان ، وغيرها ما يكفر عنه الصغائر { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } (هود : ١١٤) { إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيمًا } (النساء : ٣١)[1]

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٤٣

عن طلحة بن عبيد الله " أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يا رسول الله أخبرني بما فرض الله على من الصيام؟ فقال: شهر رمضان إلا إن تطوع. فقال: أخبرني بما فرض الله على من الزكاة؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئا ولا أنقص مما فرض الله على شيئا. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق " (متفق عليه)

وهذا التشدد في إلزام الناس بما لم يلزمهم به الله تعالى لا يطيقه كل الناس ويوقع كثير من الناس في الحرج فهم لا يقدرون على القيام به والمتنطعون لا يكفون عن إلزامهم به .

{ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ } (الحج : ٧٨)

أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل اللّه لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال ﷺ : "بعثت بالحنيفة السمحة . (١)

ومما يؤخذ عليهم كذلك تحريمهم لكثير من المباحات يقطعون فيها بالتحريم مع أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وهم لا يعلمون أن من حرَّم ما أحل الله كمن أحلَّ ما حرم الله يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ لْمُعْتَدِينَ } (المائدة : ٨٧)

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في لأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك – قالوا: نعم، فقال النبي ﷺ : " أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى " (رواه : البخاري)

{ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ } يعنى بالطيبات: اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥

فحرموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم " (١)

"ولا تعتدوا " قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين؛ أي لا تشددوا فتحرموا حلالا، ولا تترخصوا فتحلوا حراما؛ قاله الحسن البصري. وقيل: معناه التأكيد لقوله: "تحرموا "؛ قاله السدي وعكرمة وغيرهما؛ أي لا تحرموا ما أحل الله وشرع " (2)

ويقول تعالى أيضاً :

{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ } (النحل: ١١٦)

قال ابن وهب قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعالى يخبر بذلك عنه . وما يؤدى إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول : إنى أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى." (٣)

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم اللّه أو حرم شيئاً مما أباح اللّه بمجرد رأيه وتشهيه، ثم توعد على ذلك فقال: {إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون} أي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: {نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ} " (٤)

---

(١) " تفسير الطبرى " ج١٠ ص ٥٢٣ .
(٢) " تفسير القرطبى " ج ٦ ص ٢٦٣
(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٦
(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٠٩

وما أكثر المباحات التي حرمها المتنطعون ! وما أكثر المندوبات التي فرضها المتفيقهون ! ولقد كثرت تلك الكتيبات وانتشرت بين أيدي الشباب التي تحرم العادات كلبس " الدبلة " للخاطب والمتزوج ! والاحتفال بالمولد النبوي حتى بذكر الله وقراءة القرآن ! والاحتفال بأعياد الميلاد وإن كانت خالية من الإسراف والبذخ! والاحتفال بعيد الأم وإن كان فيه صلة رحم مقطوعة ! وتحريم جميع أنواع الموسيقا والغناء حتى ولو كان دفاً يعلن به النكاح ! وتحريم حلق اللحية أو أخذ شيء منها ! وتحريم التصوير وإن كانت صورة في بطاقة شخصية أو جواز سفر ! وتحريم تعليم المرأة وإن كان ولابد فتتعلم العلوم الدينية فقط وما عدا ذلك فحرام ! وتحريم كشف المرأة وجهها ، وإن كان لضرورة تقتضيها حاجة العمل ! ...

وأصبح التنافس بين هؤلاء الكتاب المتنطعين على البراعة في تحريم المباحات وفرض المندوبات !!

الحادي والعشرون : إلقاء الكلام على عواهنه

ومن غريب أمرهم وتدليسهم على الناس إلقاء الكلام على عواهنه دون بيان له وتحديد مفهومه الصحيح ، كسرد الآيات والأحاديث في القضية التي يريدون أن يثبتوها دون توضيح أو بيان لهذه الآيات وتلك الأحاديث مما يجعل الناس يأخذونها على ظاهرها أو يذهبون في فهمها كل مذهب كتلك الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الدنيا وتزهد الناس فيها دون بيان للمقصود بالدنيا المذمومة في هذه النصوص مما يقر في ذهن السامع أن الطريق الأمثل لرضا الله تعالى ترك عمله والتفرغ للعبادة وعدم الضرب في الأرض ولا السعي فيها ، والسامع إما يقتنع بترك الدنيا والتفرغ للعبادة ، أو لا يقتنع لشدة حاجته للعمل من أجل أسرته وأولاه ومستقبله وطموحه فإنه يغض الطرف عن هذه النصوص من باب " إن قالوا : حرام فقل حرام : ولكن اللذاذة في الحرام "[1] وبهذا يكونون قد أساءوا إلى دين الله وأفسدوا دنيا الناس . ما ضرهم لو بينوا للناس أن طلاب الدنيا المذمومة هم الذين يرفضون الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق مكتفين بمتاع الدنيا عن نعيم الآخرة .

---

(١) بيت لأبي نواس يتكلم فيه عن الخمر .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ } (التوبة : ٣٨)

طلاب الدنيا المذمومة هم الذين يغفلون عن شرع الله ولا يرجون لقاء الله لسوء ما قدمت أيدهم .

{ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ {٧} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } (يونس : ٧-٨)

طلاب الدنيا المذمومة هم من يصدون عن سبيل الله ويحتكمون إلى الهوى فيضلهم عن شرع الله .

{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ }(إبراهيم: ٣)

طلاب الدنيا المذمومة الذين اتخذوا الدين لهوا و لعبا واغتروا بقوتهم وأموالهم وسلطتهم ونسوا الله وشرعه .

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ {٥٠} الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } (الأعراف : ٥٠ – ٥١)

أما من يملك الدنيا في يده ويسخرها لطاعة الله فهذا هو المؤمن الطالح الذي اقتدى بالسلف الصالح الذي ملكوا الدنيا وملئوها عدلا ورحمة وعلما وحضارة لقد كان من دعائه ﷺ " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى في كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر " (رواه : مسلم)

فكيف نطلب من الناس أن يتركوا دنيا العمل والجهاد والتقدم والعلم ؟

ومن هذا الباب أحاديث الشفاعة التي يسردها الواعظ متتابعة دون شرح لمعناها ولا لمن المستحق لها ومن المحروم منها مما يترتب عليه الفهم الخاطئ للشفاعة

وهو أن الله تعالى يحكم على أهل الكبائر من أمة محمد بدخول النار لكن النبي يرفض هذا ويصر على عدم دخولهم فيها هكذا كأن سيدنا محمد أرحم بالمسلمين من الله تعالى وحاشى لله أن يكون هذا هو مفهوم الشفاعة ، إنما مفهومها كما بينته الآيات الكريمة هو أن الله تعالى قضت مشيئته ورحمته بالعفو عمن ماتوا ولم يشركوا به شيئا لكن قلت حسناتهم عن سيئاتهم شيئا يسيرا فتداركتهم رحمة الله وعفوه فيأذن لمن يشاء من عباده الصالحين تكريما لهم ورفعا من قدرهم بأن يشفع في هؤلاء فيشفع أو أن الله تعالى يستشفع من يشاء من عباده الصالحين في الموحدين من أهل الكبائر الذين قضوا أجلهم في النار بأن يخرجوهم منها وعلى ذلك فمفهوم الشفاعة عند أهل السنة مقيد بأمرين: رضا الله تعالى عن الشافع ليشفع، ورضاه عن المشفوع له وفي ذلك يقول تعالى : مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه } (البقرة : ٢٥٥) .{ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ } (الأنبياء : ٢٨)

هذا بالإضافة إلى الشفاعة العظمى للناس جميعا من لدن آدم إلى يوم القيامة والتي اختص بها سيدنا محمد لإراحة أهل الموقف والحشر من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم.

ومن عجيب أمر هؤلاء المتنطعين أنهم في الوقت الذي يطالبون الناس بالالتزام الشديد بالسنن والمندوبات وتحذيرهم المبالغ فيه من الصغائر واللمم فإنهم يذكرون للناس أحاديث ظاهرها يدل أن النبي يحول بين دخول أي مسلم والنار وإن زنا أو سرق أو ارتكب كبائر الإثم ! فلماذا إذن هذا التشدد في التمسك بالسنن وتجنب الصغائر إذا كان أهل الكبائر سيدخلون الجنة !! والحقيقة غير ذلك فأهل الكبائر يدخلون النار – إن ماتوا دون توبة نصوحا – ويأذن له تعالى كما بينا لمن يشاء من النبيين والصديقين والشهداء والعلماء بأن يشفعوا فيهم فيدخلون الجنة بعد قضاء أجلهم في النار .

ومن هذا الباب أيضا سردهم لنصوص العذاب لدرجة تجعل الناس يقنطون من رحمة الله ويوقنون بأنه لن ينجو من النار أحد ، وسردهم لأحاديث الشفاعة سردا متواليا دون فقه فيقر في روع كل مسلم أنه لن يدخل النار أحد من أمة محمد ﷺ فمحمد لن يرضى أن يدخل أحد من أمته النار وإن لم يعمل من الخير شيئا ؟

ومن هذا الباب حديث " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" الذي يفهم منه من لا فقه له أنه دعوة إلى إجبار الناس بالقوة على تغير المنكر بقطع النظر عن سلطة الداعي على المدعو .

والأمثلة على ذلك كثيرة لذا يقول العلماء لا حديث بغير فقه كما أنه لا فقه بغير حديث فإذا ذكر الإنسان حديثاً فعليه إن يبين المراد منه وأقوال العلماء فيه ولا يترك الناس تفهم كما تشاء !

إن عيب هؤلاء عدم فهم الدين ككل متكامل فإذا تحدث عن آيات العذاب لابد أن يتحدث عن آيات الرحمة ، وإذا تحدث عن الزهد في الدنيا لابد أن يتحدث عن السعي والعمل الصالح أما الاكتفاء بالجزء دون بقيته يكون كمن قرأ { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ } (الماعون : ٤) دون تكملة للآية الكريمة .

الثاني والعشرون : الاعتلال النفسي ، والانحراف السلوكي

إن كثيراً من هؤلاء المتنطعين يجمعون إلى جانب كلالة العقل اعتلال النفس وانحراف السلوك ، وإذا دخل مجال الدعوة واحد هذه صفاته فلا تنتظرن منه إلا الفساد والإفساد " الواقع إن الأمراض النفسية عند هؤلاء المتعصبين للفرعيات تسيطر على مسالكهم وهم باسم الدين ينفسون عن دنايا خفية ! وعندما يشتغل بالفتوى جزار فلن تراه أبدا إلا باحثا عن ضحية "[1]

ولو درست حياة هؤلاء لوجدت العجب فإنك ستجد كثيراً منهم اشتهروا إلى جانب الغباء والفشل في التعليم ، بالتعصب وانحراف المزاج وإثارة المشاكل وينـدر أن تجد واحداً من هؤلاء متفوقاً علميّاً أو رقيق القلب ، حلو المعشر ، سمح الخلق ، محبوبا من أهله وعشيرته ومن رؤسائه في العمل . كنت أعرف شاباً لم يكمل تعليمه .. ما ترك منكراً إلا فعله .. غليظ الطبع قاسى القلب كان الناس يتحاشونه لسوء خلقه انقطعت معرفتي به ثم رأيته بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات فإذا به كث اللحية حتى لتقارب صدره قصير الثياب حتى ليقارب ركبتيه تعجبت من هذا التحول الكبير ، وعندما تيقنت من أنه أحد أعضاء جماعة إرهابية زال عجبي ،

---

(١) هموم داعية ، محمد الغزالي ص١٨

وهذه القصة تكررت بعينها مع آخرين ممن أعرف ، وليس معنى هذا أن الله لا يقبل توبة العاصي وأن من فسد في بداية حياته محكوم عليه بالشقاء الأبدي لا إنما معنى ذلك أن دين الله لا يناسبه ولا ويصلحه إلا اللين والرفق ، والعمل والتعامل بالمسامحة والتسامح .

الثالث والعشرون : يريدون أن يَحْكُمُوا بإسلامهم لا أن يُحْكَمُوا بالإسلام

ورغم جهلهم بالسياسة الخارجية والداخلية والقوانين الدولية وأنظمة الحكم وأحوال البلاد والعباد . ورغم هذا الجهل إلا أنهم لا يكفون عن التدخل فيما لا يعلمون ويفرضون وصايتهم على المختصين بل وكثيرا ما يرمونهم بالتبديع والتكفير والخروج على الدين ، وصار السب في الحكام والمسئولين هو أقصر الطرق للشهرة وذيوع الصيت مما جعل كثير من هؤلاء المتنطعين يخصص معظم كلامه للإفتاء ليس في الدين فحسب بل وفي السياسة والحكم وجعلوا همهم استعداء المحكومين على الحكام وتشكيك الناس في الأنظمة الحاكمة دون أدنى معرفة لنظم الحكم ولا يتركون هذه الأمور المتخصصة لأولى الأمر ، وأهل الذكر والمدهش أن بعض هذه الجماعات كالجهاد وغيرها يسعون إلى الحكم ويعملون على إسقاط الأنظمة الحاكمة وهم لا يدرون شيئا عن الحكم اللهم إلا بعض الشعارات الدينية المرفوعة لكسب تأييد الناس دون وعى دقيق بكيفية تطبيقها وهي نفس الشعارات التي رفعها أسلافهم من الخوارج " لا حكم إلا لله تعالى " ورد عليهم على رضى الله عنه قائلا : " كلمة حق أريد بها باطل " . ولقد تمكنوا من السيطرة على بعض الحكام العرب وفرضوا آراءهم على المجتمع فما زادت البلاد إلا سوءا وما أزاد أعداء الإسلام إلا في الإسلام طعنا واتخذوا هذه الصور الشائهة للإسلام ذريعة للطعن في الإسلام ووصمه بالتخلف والرجعية والإرهاب ومعاداة الديمقراطية وتأكيد حكم الفرد الاستبدادي ... مع أن هؤلاء لو أحسنوا تعليم الناس وإرشادهم سواء السبيل لأحدثوا التغير المطلوب كما المستشار حسن الهضيبي أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم ، لكنهم لا يريدون أن يقام شرع الله على أيدي الفاهمين للإسلام إنما يريدون أن يحكموا هم ويطبقوا ما يفهمون من الإسلام !!.

الرابع والعشرون : طلب الرياسة و تعجل الشهرة وذيوع الصيت

إن لعالم الدين مكانة عظيمة في المجتمع وكثير من الناس من يحب مجالسة العلماء فضلا عن أن يكون واحداً منهم وليس في الإسلام رجال دين بالمفهوم

المسيحي بمعنى أن علم الدين قاصر على بعض الرجال دون سواهم وليس من حق أي إنسان ، عندهم ، أن يكون من رجال الدين إلا إذا انقطع للدين وتفرغ للعبادة وحصل على شهادة عالية من كليات اللاهوت ، أما في الإسلام فيستطيع أي إنسان أن يعلم الناس ويعظهم بشروط ذكرناها في غير هذا الموضع ، وبعض الناس اعتقد،خطأ، أن التصدي للدعوة أمر سهل يسير فما عليه إلا أن يرسل لحيته ، ويلبس جلبابا قصيرا أبيض ، ويحفظ بعض الآيات وبعض الأحاديث ، ويقرأ بعض الكتب أو يستمع إلى بعض شرائط الكاسيت فيكون بذلك عالم ! ويناديه الناس بفضيلة الشيخ ! وغاب عن هؤلاء الناس أن عالم الدين هو من يشهد له علماء الدين بالعلم وليس العامة كما يظن وأن عالم الدين ليس من لبس ملابس علماء الدين إنما من درس علوم الدين : عقيدة و تفسير وفقه وعلم أصول فقه ومصطلح حديث وسيرة .. ودرس علوم اللغة العربية : نحو وصرف وبلاغة وعلم لغة ... ودرس الواقع وفقهه : سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً ... وفوق كل هذا لابد أن يكون من أرباب الفهم وأصحاب العقول المستنيرة ، ولكن هذا الطريق صعب ومضن وشاق ويحتاج إلى سنوات وسنوات وصاحبنا لا طاقة له بهذا العناء ولا عقل له يستوعب هذه العلوم فليسلك أقصر الطرق وهو إرسال اللحية ولبس الجلباب القصير الأبيض ويضع على رأسه عمامة و في جيبه سواكا ، وبين عشية وضحاها يصبح عالما يؤم الناس في الصلاة ويفتيهم في أمور الدين والدينا ! كالذي – مع فارق التشبيه – يريد أن يصبح إنسانا عصريا متحضرا فيخلع جلباب قريته ويلبس بنطلون جينز وفانلة عليها العلم الأمريكي ويحلق شعره ويدخن السجائر الأمريكية ويشاهد الأفلام الأمريكية ويظن نفسه أمريكا ! . إن حب الرياسة قد يورد صاحبه موارد الهلكة فقد يجرئه على الفتوى بغير علم وعلى الكلام في الدين بالرأي ، وحب الرياسة والسمعة جعل هؤلاء المتنطعين يستفتون في المسائل الدقيقة فيستحى أحدهم أن يقول الله أعلم بل يكابر ويفتى برأيه أو بما سمع دون تحقق مما سمع فيَضل و ويُضل وما ضره لو قال لا أعلم فيما لا علم حقيقي به اقتداء بالملائكة { قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (البقرة : ٣٢) .

واقتداء بالأنبياء والفضلاء من العلماء ، فالنبي وهو سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء وإمام المرسلين عندما سأله رجل " أى البقاع شر ؟ قال : (لا أدرى حتى أسأل

جبريل) فسأل جبريل ، فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ، فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرها الأسواق " .

" وقال الصديق للجدة : ارجعي حتى أسأل الناس. وكان على يقول: وأبردها على الكبد، ثلاث مرات. قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم. وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال: لا علم لي بها ، فلما أدبر الرجل. قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به! ذكره الدارمى في مسنده ... وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغى للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال: لا أدرى. وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدرى.
قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم. قال ابن عبد البر: من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم. روى يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف . قلت: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام (أوغاد الناس) ! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسى القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . "[1]

والاستسهال " والفهلوة " داء أصاب الأمة في مقتل فما يكاد ينجح مشروع إلا وتجد أن كثيرا من الناس لجا إليه على اختلاف خبراتهم فإذا فتح خباز مشروع فرن تنتج مخبوزات ونجح فإن صانع الأحذية وصاحب المكتبة والكهربائى .. يحولون محالهم إلى أفران تنتج المخبوزات ، ومثل هذا تجده في صالونات الحلاقة والمقاهي ، ومحال التليفون المحمول ومراكز الاتصالات ... وإذا ذاع صيت عالم وجدت أصحاب المهن : الكهربائى والمبيض والنقاش .. والموظفين في شتى الهيئات والمصالح ، وطلاب المدارس و الجامعات ، يصعدون المنابر ويعقدون مجالس العلم والإفتاء !!

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٨٦

الخامس والعشرون : الجدل والمراء والخصومة

إن هؤلاء المتنطعين ما أعطوا شيئا أكثر من الجدال والمراء والخصومة فهم لا يقبلون رأيا يخالف رأيهم لذا يظل أحدهم يجادل بالتي هي أسوأ حتى ينتهي الجدال إلى خصومة وتتبادل فيه الشتائم وربما انتهي إلى تشابك بالأيدي وقطيعة أبدية ، ما ضرهم لو عرضوا وجهة نظرهم بالحكمة والموعظة الحسنة وإن كان جدال فيكون بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتي هي أَحْسَنُ } (النحل : ١٢٥) فالتفقه في الدين إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال .

قال الإمام أبو حامد الغزالي: المراء: طعنُك في كلام الغير لإظهار خَلل فيه، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيَّتك عليه؛ قال: وأما الجدالُ فعبارةٌ عن أمر يتعلّقُ بإظهار المذاهب وتقريرها. قال: وأما الخصومةُ فلِجَاجٌ في الكلام ليستوفي به مقصودَه من مال أو غيره، وتارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضاً؛ والمِراء لا يكون إلا اعتراضاً."[1] .

لقد نهي القرآن عن الجدال إلا بالتي هي أحسن حتى مع من خالف لعقيدتك فما بالك بالمسلم الذي على دينك : { وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتي هي أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (العنكبوت : ٤٦)

ونهي النبي عن الجدال في القرآن الكريم بغير علم وبهدف ضرب آياته بعضها ببعض " لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالا فيه كفر " حديث صحيح (رواه الطيالسى والبيهقي)

" لا تجادلوا بالقرآن ولا تكذبوا كتاب الله بعضه ببعض فوا الله إن المؤمن ليجادل بالقرآن فيُغلَب وإن المنافق ليجادل بالقرآن فيغلب " (سلسلة الصحيح للألباني)

وغالبا ما يكون سبب الجدال عدم العلم فالمتنطع يكون قد قرأ رأيا أو فتوى واعتقد أنها هي الصحيحة وجهل ببقية آراء العلماء أو علمها ولم يأخذ بها .

---

(١) " الأذكار " للنووى كتاب حفظ اللسان .

ونهي القرآن الكريم عن الجدال بغير علم فقال تعالى { هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } (آل عمران : ٦٦) .

والجدال بالباطل من وحي الشياطين { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }. (الأنعام : ١٢١)

وأخبر النبي أن أبغض الناس إلى الله أولئك المجادلين بالباطل شديدي الجدل والولع به .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال : " أبغض الرجال إلى الله الألد الخَصِم" (متفق عليه) الألد شديد الجدال، والخَصِم : المولع بالخصومة الماهر بها ".

ولقد جعل النبي أن الجدل من طرق الضلال والباعث عليه .

عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } (الزخرف : ٥٨) (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه) .

والمراد بالجدل المنهي عنه في القرآن ضرب القرآن بعضه ببعض ، والأحاديث بعضها ببعض لترويج مذاهب المتجادلين وآراء مشائخهم من غير رغبة حقيقية في التعلم والوصول للحق .

ولقد حث النبي على ترك المراء والجدل ووعد تارك الجدل ببيت في الجنة .

وعن أبى أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له في وسطها ومن حسن خلقه بنى له في أعلاها (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي) .

إن الداعي إلى الدين عليه أن يؤلف الناس حول القرآن الكريم ويحببهم في دين الله وإذا أحس أن الناس بدءوا يختلفون وأن الجدل بدأ يكثر فليه أن ينهي الحديث محافظا على وحدة المسلمين ومغلقا باب الشيطان .

قال رسول الله ﷺ " اقرءوا القران ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم عنه فقوموا." (متفق عليه) .

لقد ابتلينا بأناس متعالمين يدعون الفهم في كل شيء رغم أنهم لا يحسنون عمل أي شيء حتى مهنهم ، تسمع موظفا لم يلعب كرة القدم حتى وهو صغير في الشارع ينتقد كبار مدربي فرق الكرة ! وهذا عامل أمي لا يحسن القراءة والكتابة يتكلم في السياسة ولا تعجبه قرارات السياسيين ويتهمهم بالعمالة والجهل والجبن ، وأنه لو كان بيده الأمر لفعل كذا وكذا وإذا أوكلت إلى هذا العامل عملا أفسد ولم يصلح ولا يقوم بالوفاء بواجباته .

ليت أمر هؤلاء المتنطعين اقتصر على إساءتهم لأنفسهم إذن لهان الخطب لكن الأدهى والأمر أنهم أساءوا بفهمهم المعوج هذا إلى الإسلام وعموم المسلمين مما جعل ديننا الحنيف " الإسلام " سبة في أفواه أعدائه وغلاً في أعناق أنصاره إن مصيبة هؤلاء أنهم جعلوا من عاداتهم الجاهلية البدوية ، وأمراضهم النفسية دينا يشغبون بها على دين الله تعالى . ويفرقون بها وحدة المسلمين .

لقد آن للأمة الإسلامية أن تتوحد حتى تصد مطامع أعدائها في بلادها فهلا تركك الناس المذهبية الدينية و وتركوا لعلماء أمتهم – وهم بحمد الله كثيرون في كل مجال – مهمة الفتوى والتفسير ، وأن يكتفي وعاظنا بتعليم الناس ما هو معلوم من الدين بالضرورة تلك الأمور غير المختلف عليها والتي أجمعت عليها الأمة والتي لا ينكرها مسلم كفرائض الإسلام و الأخلاق واستخلاص العبرة من قصص الأنبياء والصالحين ..بدلا من هذه الفوضى الدينية فكل من قرأ أو سمع حديثا أصبح مفتيا وكل من عرف معنى آية أصبح مفسرا ، وكل من أرسل لحيته أصبح داعية !!

من المكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

إن جميع المسلمين مكلفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي هذا يقول تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (آل عمران : ١١٠) لكن الناس متفاوتون في معرفتهم بأمور الدين فكيف يطالب بالقيام به كل الناس ؟

إن هناك أموراً في الدين لا يجهلها مسلم تسمى معلوم من الدين بالضرورة كمعرفة أن الصلاة فريضة وأن الخمر محرمة وأن الحج يكون إلى بيت الله الحرام في أشهر معلومات وهذه الأمور يمكن أن يدعو الناس جميعاً إليها فإذا كان هناك

إنسان لا يصلى بغير عذر فهل يحتاج هذا الإنسان إلى عالم من علماء الدين ليقول له صل ؟ بالطبع لا ، إنما هذا واجب على كل مسلم له به علاقة ، وإذا كان إنسان يكذب فهل يحتاج إلى عالم دين ليقول له أن الكذب الحرام ؟ بالطبع لا ، إنما يمكن أن ينصحه بترك الكذب أي مسلم ، أما الأمور الخلافية والمباحث العلمية فلا يجب أن يتصدى للإفتاء فيها إلا العلماء وإذا اختلفوا جاز للعامة الأخذ بما الميسر من أقوالهم لكن يجب أن يراعى المسلم أموراً مهمة حال دعوته غيره منها :

١- أن تكون هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢- أن يتخير المكان والزمان المناسبين للدعوة .

٣- أن يكون من الملتزمين بما يدعو غيره له .

٤- ألا يتعدى حدود علمه فيتكلم في الدين بغير علم .

لكن الذي يحدث أن الواعظ يبدأ بالأمور العامة ثم ينسى قدره ويغتر بعلمه فيخوض في الحديث فيما لا علم له به ويفتى الناس ويترك مجال المعلوم من الدين بالضرورة إلى الإفتاء في دقائق الأمور والذي يغريه بذلك إقبال الناس عليه وتجمعهم حوله فيتوهم في نفسه العلم ومن كثرة ثناء الناس عليه يسيطر عليه إحساس بأنه أصبح عالماً ويقول للناس استفتوني أفتكم وهنا يكون البلاء وتحدث الكارثة ، ويدلى بدلوه في أمور الدين والدنيا والسياسة والحرب والسلام والاقتصاد وهذه آفة كل الوعاظ والدعاة ولم يسلم منهم إلا القليل النادر الذي اكتفي بالأمر بما هو معلوم من الدين بالضرورة .

وعامة الناس لا تستطيع التفرقة بين الواعظ والعالم فكلاهما يتكلم في الدين وكلاهما يستشهد بالقرآن والحديث الشريف وربما يكون الواعظ أكثر مصداقية من العالم بما يلتزم به من مظاهر الدين كإرسال اللحية ولبس الجلباب الأبيض والغترة، كما أن الناس ، ويا للعجب ، يؤثر فيهم من يخرج على الحاكم وينتقد المسئولين فيظنون أنه لا يخشى في الله لومة لائم حبذا لو قبض عليه رجال أمن الدولة عدة مرات فإنه يصبح ، في نظر العامة ، من العلماء الكبار المشهورين الذين تخشى الدولة على نفسها من أقوالهم !!

أما الدعوة الخاصة والإفتاء في المسائل الدقيقة فتكون لعلماء الدين الكبار الذين شهد لهم العلماء بالعلم إذ ليس من قال الناس أنه عالم صار عالما إذ أن العامة لا

يحكمون على العلماء إنما الذي يحكم على العلماء أكابرهم لكن الآفة أن من تجمع حوله بعض العامة يظن نفسه عالما بغض النظر عن قول العلماء فيه ، وهذا لا يحدث إلا في مجال الدعوة – وهو أخطر مجال – فإن من يحصل على أي شهادة علمية إنما الذي يمنحه إياها هم أساتذته ومعلموه وليس طلابه ومريدوه . و مع تعدد أمور الحياة و كثرة المستحدثات فإن أمر الفتوى لا يجب أن يترك حتى لآحاد العلماء إنما يجب ألا يناط بالأمور الدقيقة المؤثرة في حياة الناس إلا المجالس العلمية المتخصصة فقضايا مثل : إيداع الأموال في البنوك ، والتأمين على الحياة ، والتبرع بأعضاء الجسم ، والعمليات الفادئية في البلاد المحتلة ضد المدنيين ، وغيرها من الأمور التي يجب أن تدرس من كافة جوانبها ويناقشها كبار العلماء في مجامع للبحوث الإسلامية كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ودار الإفتاء ، ويجب أن يتم الاتفاق على ما يفتى به الناس خاصة في مواضيع ذات تأثير بالغ على حياة الفرد والمجتمع وأن يلتزم العلماء بقرار اللجان المختصة ، وخيراً فعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمع فتاوى الأزهر الشريف في مائة عام على اسطوانة ليزر ، ويسر طريقة البحث فيها ، وأنا شخصيّاً أراحتني هذه الفتاوى من الجدل العقيم فما يكاد يبدأ جدل حول قضية من القضايا الخلافية حتى أسارع بطبع نص فتوى الأزهر الشريف في هذه القضية لحسم الخلاف .

وإذا طبقنا منهج ميزان الحق الذي تحدثنا عنه على منهج النصبيين الحرفيين والظاهريين البدو فإننا نجد أنهم يهملون حاجات بعض مكونات الإنسان .

فإذا كان العقل وهو من أعظم نعم الله على الإنسان وهو ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ وهو وسيلة المعرفة لا نصيب له عند النصبيين الحرفيين فقد أهملوه وحرموه من التفكير والاجتهاد ، كما أهملوا حاسة الذوق القلبية التي تجعل الإنسان يستمتع بالفنون الراقية المهذبة للنفس والمحركة للعواطف النبيلة كالشعر الذي قال النبي فيه في الحديث الصحيح المتفق عليه " إن من البيان لسحرا " وجعله يخلع برده على كعب ابن زهير عندما أنشده قصيدته "بانت سعاد" فعفا عنه وكان قد أهدر دمه بل من فرط إعجابه خلع عليه برده . ذلك الشعر الذي قال عنه الرسول " إن من الشعر حكمة " (رواه البخاري)

أو كالغناء غير الفاحش ولا البذيء الذي يروح عن النفس ، ويحرك المشاعر النبيلة خاصة في المناسبات السعيدة فقد سمع النبي الغناء وأمر عائشة بأن تكون

هديتها لعروس ذات قرابة لها مغنيا يغنى لها . وكذلك سمع بعض الصحابة الغناء ولم يروا فيه بأسا خاصة في المناسبات السعيدة كالأعياد والزواج .

لكن ليس كل غناء مباح فالغناء المباح له شروط بيناها في غير هذا الموضع .

كما أنهم بالنسبة للروح التي غذاؤها معرفة الله وعبادته والأنس به فإنهم حولوا الكلام عن العقيدة إلى حروب كلامية وتحدثوا في موضوعات ما تحدث فيها السلف كحديثهم المستفيض في الذات والصفات لدرجة أنهم ألفوا فيها كتبا مستقلة ، وبدلاً من غرس الإيمان في قلوب الناس شغلوهم بهذه الأبحاث الكلامية التي لا طائل من ورائها إلا إضاعة الوقت وإضعاف الجهد ، وتمزيق الأمة .

أما بالنسبة للعبادة فإن منهج النصبيين الحرفيين يركز على التفاصيل الدقيقة الفرعية في أداء العبادة أكثر من تركيزه على الحكمة من هذه العبادة فيركزون مثلاً على هيئة المصلى أكثر من خشوعه في الصلاة ، ويتشددوا غاية التشدد في التمسك بحرفية أداء العبادة ، حسب مذهبهم ، وهم ليسوا كذلك فيما يتعلق بثمرة هذه العبادات وهي حسن الخلق في التعامل مع الناس ، وإخلاص العمل في التعامل مع المعاش ، ورقة القلب كثمرة من ثمرات الشعائر التعبدية .

كما أن مفهومهم الضيق للعبادة الذي يقتصر على أركان الإسلام والذكر والدعاء وقراءة القرآن فقط قد أهمل المهمة الثانية للإنسان كخليفة وهو استعمار الأرض.

{ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } (هود : ٦١)

كذلك استبدالهم الحفظ والتكرار بالفقه والتدبر والاعتبار ؛ فركزوا في فهم الدين على الحفظ وترديد مقولات السابقين دون فقه للدين ولا للدنيا فكأني بهم لم تصبهم دعوة النبي ﷺ لابن عباس فقد " دَعا له النبي ﷺ فقال: اللهم فَقِّهْه في الدِين وعَلِّمه التأوِيل " (رواه البخاري وأحمد وابن حبان والحاكم)

ولم تصبهم دعوته ﷺ لعلماء أمته " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (متفق عليه)

إن الناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أن التطور والتقدم والتحضر قرين الاجتهاد والإبداع والحرية المسئولة أما فترات الضعف والتخلف فقرينة التقليد والاتباع وتقديس التراث ، إن المدقق في الحضارة العربية الإسلامية يجد أنها كانت

حضارة مبدعة متفردة فعلماء تجتهد و فرسان تجاهد ، وعمال يعملون وفلاحون يزرعون كانت حضارة علم وعمل وهداية قادت العالم ألف سنة وشارك في صنعها علماء الدين إلى جانب غيرهم من علماء العلوم الطبيعية ، الرياضيات ، والفلاسفة، والشعراء .

الإسلام دين اليسر

إن الدين الإسلامي دين يسر وسلام لا دين مشقة وإجرام فنهج النبي وسنته اختيار أيسر الأمور " مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ " (متفق عليه)

ومع ذلك فإن إخواننا النصيين الحرفيين والسلفيين غير الأصوليين ومن سار على نهجهم يختارون من أراء السلف ما وافق هواهم ويلزمون الناس به ، وما خيروا بين أمرين إلا واختاروا أعسرهما ، وإن كان موقعاً في الحرج !!

فإن جادلتهم بالتي هي أحسن رموك بالابتداع ومخالفة السلف هكذا بصيغة الجمع السلف !!

وهذا هو الغلو في الدين ، والتنطع الذي حذر الدين منه أشد التحذير فيقول الله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ } (المائدة : ٧٧)

ويحذر النبي من الغلو في الدين ويبين أنه كان سبباً في هلاك الأمم السابقة فيقول " وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" (أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه).و يؤكد هذا بقوله ﷺ " عن ابن مسعود رَضِى اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (هلك المتنطعون!) قالها ثلاثاً.(رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

المتنطعون : المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد. فعاقبة الغلو في الدين الهلاك كما بين النبي ، هلاك الدين باتهام الناس له بالتطرف والتشدد والتخلف وهلاك الدنيا بالتخلف عن ركب الحضارة ، والاستعمار والاحتلال الأجنبي .
إن شريعة الإسلام خاتمة الشرائع، أنزلها الله للناس كافة، في مشارق أرض الله ومغاربها، للذكر والأنثى، والقوي والضعيف، والغني والفقير، والعالم والجاهل،

والصحيح والمريض. ومن أجل هذا جاءت بفضل الله ولطفه وحكمته ميسوراً فهمُها، سهلاً العملُ بها، تسعُ الناس أجمعين، ويطيقها كلُّ المكلَّفين. دين الإسلام رخصة بعد عزيمة، ولين من غير شدَّة، ويسرٌ من غير عسر، ورفع للحرج عن الأمة.

التيسير مقصدٌ من مقاصد هذا الدين وصفة عامّة للشريعة، في أحكامها وعقائدها، وأخلاقها ومعاملاتها، وأصولها وفروعها. فربنا بمنِّه وكرمه لم يكلِّف عبادَه بالمشاقِّ، ولم يُرد إعناتَ الناس ، أنزل دينَه على قصد الرفق والتيسير .

شريعة الله حنيفية في التوحيد، سمحةٌ في العمل، فلله الحمد والمنة،{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } (البقرة:١٨٥) ، {يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً } (النساء:٢٨) ، {هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } (الحج:٧٨) .

أحكام الشرع تطبع في نفس المسلم السماحةَ والبعدَ عن التكلّف والمشقة، والتعلقَ الوثيق برحمة الله وعفوه وصفحه وغفرانه،{ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً } (الطلاق:٧)

واليسر كلّ عمل لا يُجهد النفس، ولا يثقل الجسم، والعسر كلُّ ما أجهد النفس وأضرَّ بالجسم، في الحديث الصحيح : " إن هذا الدين يسر، فأوغلوا فيه برفق" (أخرجه أحمد وحسنه الألباني) ، وقوله : " إن خير دينكم أيسرُه " قالها ثلاثاً .

(أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني)

وهذا شيء من بيان معالم اليسر ومظاهر التيسير، تتجلى في كتاب ربنا، وفي شخص نبينا محمد ﷺ وفي أصول الدين وفروعه .

أما الكتاب العزيز فقد أنزله الله ميسَّرَ التلاوة، وميسَّر الفهم، وميسَّر التدبّر والذكر، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر:١٧) ، {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً} (مريم:٩٧)

كتاب الله ميسَّر الحفظ، تدركه العقول، وترقّ له القلوب، يَلَذُّ استماعه، ولا يُملُّ سماعه، وإن كان فيه من الأسرار ودقائق العلوم ما يختصّ به الراسخون من أهل الذكر.

أما محمد ﷺ فقد بعثه الله رحمةً للعالمين أجمعين، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم، حريص عليهم، عزيز عليه ما يُعنتهم ويشقُّ عليهم، يضع عنهم إصرهم والأغلالَ

التي كانت عليهم، يقول ﷺ : " إن الله لم يبعثني معنّتاً ولا متعنِّتاً، ولكن بعثني معلّماً ميسِّراً" (رواه مسلم) وهو الذي يقول عن نفسه ﷺ : " أما إني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني "(متفق عليه) أما أصول الدين وعقائده فقد جاءت ميسّرةً في مطلوباتها، واضحةً في أدلتها، من الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وكماله، والإيمان بالملائكة والكتب والنبيين، والإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. والدلائل على ذلك ظاهرة من النظر في السماوات وفي الأرض وسائر المخلوقات، والسير في الأرض والاعتبار بآثار الأمم. ويكفي في ذلك مسلكُ أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين من بعدهم من السلف المقتدى بهم، لم يكونوا أهل تكلّف ولا كثرةِ سؤال أو اختلاف .

أما أحكام الشرع فقد راعت أحوالَ المكلفين وظروفَهم من الصحة والمرض، والحضر والسفر، وأحوال الاضطرار، فأعظم العبادات وأجلها بعد توحيد الله هذه الصلاة المفروضة، رُبطت أوقاتها بطلوع الفجر وزوال الشمس وظلها وغروبها، وما بين المشرق والمغرب قبلة، وفي الطهارة إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، وإذا شق استعمال الماء انتقل إلى التيمم، ويصلي المسلم قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، { لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا } (البقرة:٢٨٦) ويجمع بين الصلاتين: الظهر والعصر والمغرب والعشاء عند الحاجة، والمسافر يقصر الرباعية ركعتين، وذكر للنبي امرأةٌ تكثر من النوافل فقال ﷺ: " مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا "(متفق عليه) ومن أمَّ الناس فليخفّف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة، والصيام مطلوب من الصحيح المقيم، رُخّص فيه الفطر للمسافر والمريض، { فَمَن شَهِدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }(البقرة:١٨٥) ولا زكاة ولا حج ولا جهاد إلا على القادر المستطيع، والحج يوم تحجّون، والأضحى يوم تضحّون، والفطر يوم تفطرون. والمرأة لها أحكام تناسبها، وتراعي أحوالها. والقلم مرفوع عن المجنون والصبي والنائم، ورفع عن الأمة الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه. والأصل في الأشياء الحلّ والطهارة. والمشقة تجلب

التيسير، {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ }(البقرة:١٧٢)، والسيئة بمثلها أو يغفر الله، والحسنة بعشر أمثالها ويضاعف الله .

والمقصود من العبادات والطاعات استقامة النفس والمحافظة عليها من الانحراف والاعوجاج، وليس المقصود الاستقصاء ولا الإحصاء، ولكن سددوا وقاربوا، واستقيموا ولن تحصوا، وأتوا من الأعمال ما تطيقون. والاستقامة تحصل بمقدار سهل، ينبِّه النفسَ فتتلذّذ في العبادة، وإذا دخل العبد في المشقة والملل فقد لذةَ العبادة وابتعد عن بواعث الخشوع، بل لقد شرع لنا ديننا من الطاعات ما تقبل عليه النفوس بطبعها، بل مما تنشرح به صدورها وتتباهى به من العيدين والجمعة وأخذ الزينة والتجمّل باللباس والطيب للنفوس والمساجد، والاغتسال، والتغني بالقرآن، وحسن الصوت بالأذان، { يَابَنِى ءادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرّزْقِ قُلْ هِى لِلَّذِينَ ءامَنُواْ فِى الْحياةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}

(الأعراف:٣١، ٣٢)

فيجب على دعاة الإسلام أن يأخذوا الناس باليسير من الأمر، وألا يجشّموهم المصاعب، ولا يكلّفونهم عُسراً، " بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا، والرفق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه " (أخرجه الترمذي بإسناد حسن) وعنه ﷺ أنه قال: " حُرِّم على النار كل هيّنٍ ليّن سهل قريب من الناس "

(السلسلة الصحيحة لألباني)

وعلى أهل العلم ملاحظة التيسير في الفتوى، ومراعاة أحوال المستفتين، وإبعادهم عن مواقع الحرج مع ما يلزم من تحري الحق والصواب، يقول سفيان الثوري: "إنما العلم عند الرخصة عن ثِقة، أما التشديد فيحسنه كلُّ أحد "

(أخرجه ابن عبد البر في التمهيد)

ومن رقى المنابر وتبوّأ صدور المجالس فحسنٌ منه أن يقول برفق، ويعظ بلين، وأن يعين الموعوظين على حسن الظن بربهم. فخير دينكم أيسره، وحين بال الأعرابي في المسجد قال رسول الله ﷺ لأصحابه : " لا تزرموه ــ أي: لا تقعطوا عليه بوله ــ، إنما بُعثتم ميسرين "(متفق عليه) ، رحمةٌ في الدعوة، وسلامةٌ في الحجة، وإخلاص في النصيحة، وإحسان في الموعظة.

إن العسر والتشدّد والتنطّع كثيراً ما يدعو إليه قلةُ الفقه في الدين، والجهلُ بمقاصد الشرع وأصول الملة وضعفُ العلم. وقد يدعو إليه دوافع من هوى النفوس وفي الحديث الصحيح: " ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فأوغلوا فيه برفق "(رواه البخاري) ومن قلة الفقه في هذا الباب أن يسلك بعض الناس مسالك التشدّد في بعض الظواهر من الأحكام الفرعية والعبادات والطاعات، ولكنه يتهاون في كبائر معلومٍ مراتبُها من الدين كالغيبة والنميمة والقذف والحسد والتماس العيوب للبرآء وتدبير المكايد لمن خالفه من إخوانه والوشاية وأكل أموال الناس بالباطل .

ولا ينبغي أن يُفهم من القول بالتيسير والتحذير من التشديد الدعوةُ إلى التساهل في أمور الدين عقيدةً وأحكاماً وأخلاقاً، أو التنصل من أحكام الإسلام والضعف في نصرة الدين والحق.

وليس من التيسير الإهمال في تربية البنين والبنات، وتركهم نهباً لزيغ العقائد وتيارات الإلحاد والبعد عن الالتزام بأحكام الإسلام والحفاظِ عليهم من دواعي الفجور واللهو المحرم بحجة التحضّر والبعد عن التعقيد وتغيّر الزمان.

وليس من التيسير ما يسلكه بعض من ينتمون إلى الثقافة حين يدَّعون سماحة الدين أمام أعداء الإسلام، ويتنصلون من أحكام الدين وتعاليمه، ثم هم من أشدِّ الناس على الصُّلحاء والأخيار، بل قد يوظِّفون دعوى التيسير أداةً لقمع الدعوة إلى الإسلام وكبت الحق وتكبيله بحجة مسايرة العصر ومتغيرات الزمن. (١)

***

(١) من خطبة للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد ، المسجد الحرام ، بتاريخ ٢٠/ ٧ / ١٤٢٣